رواية قصيرة

قاتل في الأميرية

"كل شيء نسبي حتي مفاهيم الصواب و الخطأ"

احمد زهر

قاتل في الأميرية

إهداء

الي كل قارئ أنعم الله عليه محبة القراءة.

ملحوظة

أول اقصوصة تطرقت الي كتابتها ، فأعتذر مقدماً عن أي أخطاء للغوية أو نحوية، و إن شاء الله سيتم معالجة الأمر في أي عمل قادم ، فقط أردت التعبير عن خواطري و أفكاري في شكل مكتوب علي قدر الإمكانيات المتاحة.

و بعض من أسماء الأماكن من محض الخيال علي الرغم أن معظم عناصر المكان واقعية و تحديداً بحي الأميرية.

قراءة سعيدة أتشرف بها حتي لو لم تكن الرواية في المستوى المطلوب لكي تستحق وقتكم.

الفصل الأول

«في حي الأميرية»

فارس

تلك الحالة... كادت تقودني إلى الجنون، ما زلت لا أعلم إذا كنت مختلا عقليا أو أن الواقع قد تبدل بأوهامي.

أسمى هو فارس، وأدرس في كلية الطب قسم الأمراض العصبية والنفسية، ذلك الاختيار لم يكن محض صدفة بل يعود إلى قرابة ٦ أعوام قد سبقت وفاتت وترك بداخلي علامات لا حتى الوقت قد يستطيع إزالتها، بدأ الأمر في قلب طفولة قد انطفأ بريق نارها وعلي خلاف معظم الأطفال، فإنه من المعروف أن الطفولة في الغالب هي مصدر الذكريات السعيدة والأيام التي نتمنى أن نعود إليها مرة أخرى لنذوق طعم الراحة والسعادة في ظل نكبة عقولنا بتلك السلسة من الهموم والمقاساة، ولكن يبدو أن حلقات القدر قد سطرت لي بعض السطور المؤلمة، وكان النص المسرحي المعتاد قد غاب لتأتي بديلاته من الأحداث المنكوبة، بدأت حياتي بشكل غير طبيعي البتة، وعيت علي الحياة وأنا طفل بلا أب أو إخوة فقد توفي أبو علي أثر حادث مروري خلال فترة حمل والدتي بي مما أدى إلى قطع خيوط الفرص المتاحة لامتلاك أي إخوة، ومع رفض أمي للزواج من جديد رغم صغر سنها، وذلك حبا في والذي الراحل، فأنطفئ رونق شبابها سريعا وانتهت حياتها الزوجية، فتجد بعد تلك الشهور القصيرة من الزواج بالشخص الذي طالما أحبته مصير مؤلم ورعاية طفل أوشك أن يلتقط أنفاسه الأولى من الحياة، ولدتني أمي ووضعت كل أهدافها وأولوياتها في رعايتي والاعتناء بي في سفينة من العقد والكرب والطوفان يكاد أن يلقي بنا إلى حتفنا، فلا زوج أو عائل ليسد ثغرات احتياجنا، فاضطرت أمي إلى العمل كمحاولة للنجاة من سيول الفقر والهلاك، أو لأكون أكثر إدراكا ودقة في استخدام مصطلحاتي، فنقول إنها أمي وأبي في شخص واحد تكاد أكتافه ملامسة الأرض من ثقل تلك الأعباء، تعمل نهارا في إحدى حضانات الأطفال فتأتي ليلا لتهتم بأموري

وأمور منزلنا، فأدركت منذ صغري مدى صعوبة الحياة، رأيت أمي وهي تصارع من أجلي ومن أجل نشأتي، لم ترد يوما أن أعاني أو أكون أقل من غيري سواء في تعليمي أو صحتي أو ملابسي وغيره من ظواهر الحياة، لا كلمات تكفي لكي أصف أمي، فهي إنسان قد دهس قلبه وانهمكت سعادته ولا زالت ذراعاها ثابتتين في مواجهة ذلك الحمل من المسئولية، وقد زاد استغرابي هو عدم تفكيرها حتي في الزواج كوسيلة لإيجاد شخص يمد لنا يدا من العون في ظل ذلك الفراغ الشاسع، ولكن يبدو أن قصص الحب في الروايات والأفلام تتواجد في بعض حالات الواقع وربما بصورة أكثر عمقا وتفصيلا ، رفضت أن تكون مع شخص آخر مهما كانت الأسباب أو الدوافع، وقررت بدلا عن ذلك أن تسير في طريق لا يرحم سائره.

عشت حياة بسيطة مع أمي لتسير الأمور بشكل غير بشع لحد معقول، امتلكت صداقات وهوايات شبه معدومة، حياة روتينية لا يتخللها إلا ذاك الهدوء الكئيب الموحش، الهدوء الذي أصبح جزءا من حياتي منذ الصغر، فأعود من مدرستي إلى غرفتي وأظل أرسم في أوراقي المصفرة بعض الرسومات الغريبة ولكنها كانت مخرج كبتي وطاقتي حبيسة الأقدار، ظللت هكذا في دائرتي من ألا شيء جديد يذكر أو يقال، الدائرة العقيمة التي وضعتني في قطر الانطوائية والانعزال عن شتى أشكال التواصل ووضعتني على حافة إدراك الذات، فالبكار أدركت أني إنسان يحيا، لم أدرك ما أحب أو أكره، ما أريد أو لا أريد، فقط أدركت أنني قد ولدت وأدركت أنني سوف أموت يوما ما، انطوت صفحاتي فارغة وقضيت شطرا كبيرا من مسرح حياتي وأنا أغدو علي خشباته المهترئة ولا نص مسرحي قد أتخذ مكانه في أفعالي، من فقرة إلى أخرى ما زلت جاهلا مقاصدي وروادي وأسير في طريق لا ينتهي

إلا بطريق آخر لم أختره ولم أرد أن أكون على خطاه، قضيت عامي السادس والسابع... والي الخامس عشر في تلك الدنيا وأنا ما زلت لا أجد بداخلي من هو أنا، السير إلى وجهة مجهولة كان وما زال ما وضعتني فيه أقدام الواقع، وليت الأمور صارت على نفس النهج والمنهاج بل زادت الأمور وحشية وقسوة وتلك الذرات القليلة من رحمة الظروف قد أعلنت رحيلها لتترك أيادي المعاناة تهيمن فتغطي أفواهنا فنفقد أخر الأنفاس.

يوم الخميس الموافق ٢٦ مارس ٢٠٠٢، يوم آخر من تلك الدائرة العقيمة من الأحداث التكرارية، استيقظت الساعة السابعة ٧ صباحا على أثر صوت منبهي المزعج استعدادا للذهاب إلى المدرسة، نهضت ثم تناولت كوبي من الشاي وجهزت أغراضي وملابسي وكنت خلال ساعة قد أنهيت استعدادي لأغدو منطلقا برفقة مراد، من الجدير بالذكر أن مراد هو تقريبا صديقي الوحيد والمتفهم المدرك لشخصيتي المتفردة بكآبتها، تعرفت علي مراد منذ ثلاث سنوات وهو شخصية طيبة القلب، كثير الابتسام جهوري الصوت، وما يميز ذلك الإنسان القمحي طويل القامة هي أسنانه ناصعة البياض فتبدو أنها ألواح مضيئة عندما تكتف جلستنا العتمة، كان مراد من القلة أو الوحيد بمعني أصح الذي تقبل غرابتي وعيوبي وصار سريعا قريبا مني ويرافقني ويشاركني كل ما يمكن مشاركته، وهو شخص أحمل له ديونا وأفضالا كثيرة ستظهر أثارها مع الوقت.

تجهزت و قبل أن أغادر شقتي لكي أقابل مراد مررت بغرفة أمي لكي اطمئن عليها و أخبرها برحيلي إلي المدرسة ، فتحت بابا غرفتها ببطء، فوجدتها بعباءتها البيضاء المزركشة بالألوان شاردة

في جهة ما في الغرفة و قد تلبد وجهها و كساه اصفرار مريب و مقلق فأردفت سريعاً :

" أمي ، ما بك !؟ "

فابتسمت لي و قالت :

" لا شيء يا صغيري ، يبدو أنك علي أهبة الاستعداد للذهاب إلي مدرستك. "

فاحتضنتها بقوة و أخبرتها :

" نعم ، أحبك ، سأنطلق قريباً برفقة مراد "

و أكملت في ذيل ردي الأخير:

" و لكن هل هنالك شيء تخفيه عني يا أمي "

فردت قائلة :

" لا يا فارس ، لماذا يغطيك القلق ؟ أنا بخير و أوعدك دائما أن أكون "

فأخذت نفسا عميقاً من الراحة و أغمضت عيناي قائلا :

" سأتذكر وعدك هذا دائما "

فقالت لي

" و أنا لن أنساه ، هذا وعدنا الأبدي ، هيا أنطلق الأن حتي لا تتأخر علي مراد "

فأومأت
لها رأسي إيجاباً و ودعتها لكي أنطلق برفقة مراد ، كان صباحاً غائم تمتلئ فيه السماء ببقع داكنة فتحجب ضوء الشمس و الهواء رطب بارد يحمل رائحة أوراق الشجر المتساقطة فكنا في نهايات

الخريف و قد بدأ زائر الشتاء يخطو بقدميه علي أراضينا، تمشيت مع مراد و قد ظهرت عليه سعادة غامرة عندما رآني فأردف في بهجة و الابتسامة تصل بين وجنتيه قائلا :

" ٥ أيام دون أن نتقابل ، اشتقت لك يا مغامر "

و أكمل

" و كيف حالك ؟ هل تسير الأمور بشكل يرضي عليه قلبك ؟ "

فردت عليه قائلا

" بخير يا صديقي ، أسف علي غيابي الفترة السابقة ، فقد أحاطتني سياج من العزلة و أردت البقاء وحيداً لبعض الوقت "

فرد قائلا :

" لا عليك ، أتفهم تلك الحالة فجميعنا نصاب بها ، و لكن في المرة القادمة سيكون من الأفضل أن تخبرني و سنحل تلك المشكلة البسيطة سويا "

فابتسمت و هززت رأسي قائلا:

" سأفعل ، أشكرك يا مراد "

و أكملنا الطريق نتشاور و نتبادل ما يمكن تبادله من الأحاديث استغلالاً لتلك الدقائق القليلة التي تقلنا إلي مدرستنا في الناحية الأخرى من الحي وعاجلاً وصلنا و تركت مراد
و انطلقت إلي فصلي و هو أنطلق إلي فصله في المبني المجاور ، و أكد لي انتظاره بعد الدوام الدراسي لكي يرافقني في طريق العودة ، بدأت أول حصصي و الملل يقيدني و يملأ ذلك الفصل الباهت بدهاناته المصفرة الممتلئة بالرسومات الحبرية من أيادي مشاغبين فاقدين للشخصية و الهوية ، أجلس علي مقعدي المتشقق

و الممتلئ هو الآخر بتلك الشخبطة المزعجة ، ما أمر هؤلاء البشر؟ هل انتهت خزائن الدولة من الأوراق اللعينة لكي يبهرونا بذلك التأذي البصري ؟.

دلف المعلم سامر و بدأ في سرد شرحه و أنا اتكأ بكوعي علي طاولة مقعدي و راحة يدي تستقبل خدي الأيسر و أنا أتابع ذلك الشرح و لم تكرمني حوافزي الدراسية و لو بجرعة من الحماس و التشوق ، و انتهت الحصة و قضيت باقي الحصص بنفس ذلك السيناريو المحبط حتي أتت استراحة منتصف اليوم.

أنطلق الطلاب يتناثرون مثل النمل علي أثر جرس الاستراحة كأنهم كانوا حبيسي سجن ما و خلال دقيقة تقريبا كان فصلي فارغاً من أقدام هولاء الثرثارين ، فأخرجت أوراقي و وضعتها أمامي و بدأت أكتب ما يجول في خواطري فالكتابة هي مخرجي الوحيد من دائرتي العقيمة من الروتينية ، بدأت في منتصف إِحْدى تلك الورقات في طرفها العلوي و بقلم أسود ذي حبر ثقيل كتبت :

أين الحقيقة ؟

لا أجد مخرجا من تلك الحلقة، من الأوهام ، بل لست مدركاً أين الأوهام من الحقائق، كيف سأصل للخلاص وسط ثرثرة البشر و انتشار للغة الكلمات و الكذب و الضلال ، كيف أصل للحقيقة و حتي ما أراه و متأكد منه ربما مجرد فهم خاطئ لتلك الأنسجة المعقدة من كل شيء ، الواقع لنا هو ما تدركه عقولنا و الوهم ما تكذبه مقاييسنا الإدراكية، و لكن ماذا لو أخطأت مقاييسنا البشرية في موازنة الأمور، كم من خطأ سيودي بكثيرين في ظلم و افتراء ، كم من ذنب ولد في قلوب جهلت الحقيقة ؟

أنهيت كتاباتي و نظرت بها و قلت :

ماذا لو أنني جهلت أكثر من المفترض؟، هل هذا سبب ما أنا فيه؟

وأثناء تحديقي في تلك الخواطر شردت للحظة وأنا أفكر في ذلك الأمر قبل أن لفوجئ بمراد وهو يقف أمامي فأردف قائلا في نبرة مازحة:

"لا عليك، أكمل ما تفعله سأتظاهر أنني لست هنا من دقيقتين كاملتين"

فضحكت وقلت له:

"سحر الكتابة يا صديقي"

فهز رأسه إيجابا وانفرجت أساريره قائلا:

"أرني تلك الأوراق يا فيلسوف لو ليس لديك مانع"

فقلت له:

"تفضل بالطبع"

ونظر فيها لهنيهة وأخذت قرنية عينيه تتفقد المكتوب سريعا وقد صبغتها لمعة من التشوق والاهتمام ثم رفع حاجبيه
ونظر إلى بطرف عينه وقال:

"نضج عباراتك تفوح منه خبرة وأسلوب قد سبق عمرك بباع طويل"

ثم أكمل:

"سأراك لاحقا ونتحدث في هذا الأمر، لأن موعد انتهاء الاستراحة قد أوشك، أعتني بنفسك وتذكر أن تنتظرني أمام بوابة المدرسة"

ثم ودعني وأنطلق إلى فصله ولم يطل الأمر حتى قرع جرس انتهاء الاستراحة لكي تبدأ الأرض تهتز بفعل صوت ارتطام

أحذيتهم وبدأ صوت ثرثرتهم المزعج يزين تلك الأفواه التي لا تمل من الحديث وليته حديث مفيد ذو قيمة بل صياح بألفاظ سوقية يصل إلى المدارس المجاورة من عنفه، وعلي الرغم من تواجد قلة من العاقلين لكن الأغلبية العظمى يمثلون تدهور أخلاقي بشكل بشع وتلك هي أحد الأسباب التي تجعلني أفقد حبي وحماسي للدراسة.

قضيت آخر الحصص وأنا مستند بجبهتي على طاولتي وصوت همس الطلاب يختلط بشرح الأستاذ فتأتي صوت أفكاري فتغطي علي كل شيء آخر، أفكر في أمور قد لا تكون بتلك الأهمية، أشغل عقلي وأفتعل صراعات ذهنية بين قلبي وعقلي عن أمور كثيرة لا أفهم سببها، لماذا يكذب بعض البشر؟ لأن الحقيقة قد تكون مؤلمة؟ أو لأن الخيال قد يكون أكثر رفقا ورحمة بما يحدث فعليا؟، لماذا يخون البعض بلا سبب يستحق؟ هل ولدنا بتلك البشاعة ونقاوم ذلك الجانب المظلم من غرف قلوبنا بما نتعلمه من الدين؟ بما تمليه علينا عاطفتنا ومقاييسنا؟ لست متأكدا من أي شيء يحدث من حولي إلّا أن الموت سيأتي لا محالة، ما زلت لا أفهم طبيعة البشر، لماذا نتصرف بتلك البشاعة أحيانا؟ رغم أننا في ذات الوقت نتصرف بشكل جيد في مواقف أخرى، سيجن جنوني وأنا أطارد شبح الحقيقة، أو بشكل أكثر واقعية... منظوري الشخصي عن الحقيقة، فربما أكون مخطئا في النهاية وتكون جميع تساؤلاتي وافتراضاتي تلك هي بسبب عدم إدراكي الكافي لتلك الخيوط التي تترابط معا لتشكل ما نسميه الصواب، ربما أنا الشخص الخطأ في تلك السلسلة؟...

ظللت هكذا في بحر أفكاري أتلاعب بالقلم بين أصابعي حتى سئمت من دائرة التدبر التي تضعني عند نقطة البداية من جديد، فوضعت القلم في زمجرة على طاولتي ومسحت وجهي بيدي حتى شعري إلى خلف رقبتي وأخذت نفسا عميقا وقلت لنفسي:

"ماذا لو تفكيري أنني خطأ هو خطأ بحد ذاته؟"

وقطع خيوط ذلك الصراع صوت جرس نهاية اليوم، فلملمت أغراضي التي لم أستخدمها منذ بداية اليوم وانطلق أسير في تمهل ويأس، كل يوم يمر كسابقه ووحش أفكاري كاد يخترق قضبان السيطرة، حتى في المدرسة!؟ لا أستطيع أن أضع ولو قدرا من الشغف في أي شيء تقريبا والوقت يسابقني وأصبحت في كفة خاسرة والحياة تمر وما زلت أنا كما أنا، إنسان لا يفقه شيئا في أي شيء والتساؤلات حكمت علي بالموت البطيء، هل هنالك مخرج؟ أما أنا من توهم كوني في شيء مغلق أحتاج للخروج منه في الأساس؟، هززت رأسي مشتتا تفكيري ونزلت
أدراجي حتي وصلت البوابة ووجدت مراد في انتظاري، فرافقته في طريق العودة وقطرات الندى بدأت تتساقط فتبتل الأرض من أسفلنا وتزداد برودة النسيم و الغيامات تشتد كثافة فتغطي ذاك الضوء الضعيف من خلفها وأثناء سيرنا المحفوف بأحاديثنا تتجمد قدماي فجأة...

أثناء سيري وفي منتصف حديثي مع مراد أن حال العالم من حولي إلى ظلام كاحل فيتتبع ذلك الظلام انبثاق نور مبهم يزداد وضوحا تدريجيا فتولد منه تلك اللوحة البشعة، دماء متناثرة... جثمان... اجتماع من البشر متلاصقين في حلقة... صوت عزف بشع لآلة الكمان... لقطات متقطعة تنتهي بمراد وهو يمسك بكتفي لكي ينتهي

ذلك الكابوس الحي ويظهر العالم الحقيقي حولي من جديد ويردف مراد في قلق وحيرة قائلا :

"فارس؟ ما بك؟ توقفت فجأة وقد انحسرت ابتسامتك إلى هلع"

فنظرت إليه وقد اصطكت أسناني من الخوف وقلت ونبرتي ترتعش

"لا... لا شيء، شعرت فجأة بألم في قلبي، أحتاج أن ارتاح قليلا"

فرد مراد:

"قلبك؟ أستريح هنا سأجلب أي مساعدة و أَتى مسرعا"

فقلت له:

"لا، فقط بعض الراحة ونكمل مسيرنا، يبدو أن قلة نومي قد أبدت أثارها علي"

وبعد ٥ دقائق من الجلوس على إِحْدى المقاعد العامة شعرت أنني أستطيع الحراك ولو حراك بطيء فقد أردت أن أصل منزلي لألقي بنفسي في أحضان أمي وهو حلي الوحيد من تلك النكبة
التي أرعدت فرائصي، فأخبرت مراد أنني قد تحسنت قليلا وأريد أن أصل منزلي وأستريح هناك فلم انم إلّا قليلا
وأشعر بانهماك شديد فوافقني وأكمل سيرنا في صمت وقد لاحظت تشوش مراد ومراقبته لي فابتسمت رغما عني كمحاولة لتقليل توتره وحاولت أن أفتح مجالا للحديث ولكن لم يطل الأمر إلّا أن عاد ذلك الظلام الكاحل وصوت العزف بدأ يجوب الأنحاء ويزداد نازية وحدة وتظهر هياكل عظمية في
حلقة وأصابعهم تشير إلى منتصف تلك الحلقة المظلمة وبدأ اللحم يكسو تلك العظام المتشققة فجلودهم فتغطيهم عباءات سوداء موحدة، يتوقف صوت العزف فجأة بعد أن وصل إلى ذروته وفي

نصف تلك الحلقة يظهر ذلك الجثمان... وملامحه بدأت تظهر بشكل أوضح فأوضح... إلى أن انكشفت ملامحه كوضوح الشمس... لا... لا!!

وإنحال ذلك الكابوس وعاد العالم إلى طبيعته وانا ما زلت أصيح وأقول لا بشكل جنوني وعيناي كادت تهربا من جفونها من الخوف ومراد ينظر إلى في تبرق ويقول:

"فارس!؟"

فألتفت إليه ببطء وفمي منفرج ولم أتفوه بحرف... بل انطلقت في هرولة وتركته خلفي في ذهول فبدأ هو الآخر الركض خلفي ويصيح بأسمى ولكن تملكتني قيود الرعب وأخذت تجرني إلى شارع منزلي وذلك كان هدفي الأوحد حينها وسريعا انطلقت حتي بدأ صوت مراد ينحسر من خلفي إلى أن صار بالكاد مسموع وصوت طنين حاد أخذ يتربع علي عرش أذاني كلما اقتربت فيغطي علي أصوات ازدحام السيارات وأصوات البشر حتي كادت تنعدم وصلت إلى شارعي ثم وقفت فجأة وتجمدت قدماي وصعقتني شرارات القشعريرة، في نهاية ذلك الشارع تواجد تجمع من البشر بشكل مريب ويقفون كالحاجز فيحجبون ما خلفهم وهو يشبه ما أَتى في هواجسي منذ قليل، فانطلقت أركض في هلع وصوت تلك المعزوفات الغريبة شرع من جديد وتزداد عنفا كلما اقتربت من ذلك التجمع حتي وصلت وتوقفت تلك الأصوات... دبت البرودة جسدي كأنما تكدست جماهر من الثلج علي جثماني وسرت في خطوات مترنحة متوجها إلى ذلك السد البشري المتلاصق وببطء عبرت أتخبط بين الواقفين حتي وقفت أمام قلب المسرحية الأبشع علي الاطلاق، تلك الدماء السائلة النابضة بفعل قطرات الندى امتدت كالأفاعي حتي

لامست قدمي فتتبعت مصدرها وقرنية عيني تصارع تلك اللحظات المخيفة، أحاول تتبع مصدر ذلك الخط من الدماء وقلبي يدق بقوة كادت تخترق طبقات صدري، قبل أن يقع بصري أخيرا علي ذلك الجثمان الغارق في دمائه، تجمدت أعضائي وبرقت عيناي وقدماي تحارب تلك اللحظات قبل السقوط، لقد كان جثمان أمي ، سريعا سقطت علي ركبتاي ثم علي وجهي لكي أواجه جثمان والدتي وقبل أن تنطفئ آخر بقعة ضوء، رأيت ذلك الظل خلف جثمانها.

الفصل الثاني

«هنا البدايات»

مراد

صباح عاتم كأننا علي مشارف الغروب، أجواء تلتحف ببرودة لطيفة، شوارع هادئة مرصعة بالمحالّ والأكشاك المغلق معظمها

والأشجار الكثيفة المزركشة بأصوات العصافير تلتحف الجوانب في طريقي لكي أرافق فارس كعادتنا القديمة إلى المدرسة.

أسمى هو مراد، أوشكت علي إتمام السادسة عشرة من عمري، انتقلت من حي المرج منذ ثلاث سنوات لكي تدفعني رياح القدر إلى الاستقرار هنا، في حي الأميرية، تعرفت علي فارس في الأسابيع الأولى التي استقبلتني في هذا الحي، كان ذلك خلال إحدى أولي أيامي المدرسية فقد كنا في نفس الفصل قبل أن ننتقل إلى المرحلة الثانوية، كان شاب خجول قليل الكلام، تميزه تلك العيون الزرقاء المتسعة والشعر الأسود الناعم الطويل فيتدلى ملامسا جفون عينيه، كان فارس ذلك الشاب الشارد في نهاية الفصل، لاحظت دائما أنه لا يحرك مقعدا في فترة الاستراحة بل ينشغل في أوراقه إلى حين نهاية الاستراحة وعودة الطلاب مرة أخرى لإكمال اليوم الدراسي، حتى قررت في إحدى المرات أن أحاول التواصل معه من باب الفضول وفي إحدى الاستراحات ذهبت إلى مقعده وكان مشغولا بكتاباته في أوراقه فبدأت حديثي قائلا:

"أهلا، أنا طالب جديد في المدرسة، هل يمكنني أن أطلع علي كتاباتك فقد لاحظت انشغالك بها الأيام القليلة السابقة؟"

فابتسم وقال:

"رسوماتي تقصد"

فرفعت حاجباي و ابتسمت قائلا:

"تستطيع الرسم؟ رائع، دعني ألق نظرة إذ لم تمانع"

فمد يده بإحدى أوراقه وأعطاها لي، نظرت فيها ولأكون صريحا قد أشعلت نيران استغرابي ودهشتي، رسمة لإنسان يمسك قلبه و يتدلى من ذلك القلب خيوط تتصل بدمية خشبية تشبه حامل ذاك القلب وخلفية تلك الرسمة تمتلئ بالشخبطة العشوائية، رسمه لم يكن

جيدا بشكل صادق لكنه معبر ويحمل أسلوب غير اعتيادي فسألته في دهشة وحماس وقلت:

"مدهش، رسمك كئيب نوعا ما لكن أحببته، ولكن ما معني الرسمة؟"

فلمعت عينيه ووثب واقف تملئه الثقة وقال:

"حقا أعجبتك؟، تلك الرسمة تشرح أن قلوبنا تتلاعب بنا وبقراراتنا رغم أننا متسيدون عليها وهي تمثل مجرد عضو تحت إرادة العقل"

فقلت له:

"نعم صحيح!، سأكون سعيدا برؤية المزيد من رسوماتك المبدعة"

فوصلت البسمة بين وجنتيه وأنطلق منفرج الأسارير إلى حقيبته يخرج دفتر أسود متشقق الغلاف يمتلئ بالعشرات من تلك الرسمات! وكل رسمة تحمل شرحا بسيطا أسفلها، فأعطاني إياه وطلب مني رأيي، وكانت تشبه رسمة القلب حامل الدمية التي عرضها علي منذ قليل وأبديت له إعجابي و انجذابي لما تختلقه أصابعه من فن وخواطر، فتورد وجه من الفرح وقال:

"معك فارس غياث، وما أسمك؟"

فقلت له:

"إسم لطيف!، اسمي هو مراد فرناس، تشرفت بمعرفتك يا فنان"

ومنذ ذلك اليوم، بدأ الحديث بيني وبين فارس يزداد تدريجيا و انتقلنا من حديثنا المتعلق برسوماته فقط إلى مواضيع أخري تخص حياته وحياتي، ولأكون صريحا كان فارسا صعب المراس وقد تكبدت عناءا في محاولاتي لاستدراجه في الحديث وإخراجه من ذاك البئر من الغموض، فعرفت سبب قلة أو انعدام صداقاته وهو أنه لا يعطي الفرصة لأحد أن يتقرب منه، الأمر أشبه بصياد يلقي

صنارة بلا طعم وينتظر وبال من الأسماك!، لكن مع الوقت تفهمت تلك الثغرات وظهرت الجوانب المضيئة منه وأصبح أقل عزلة وانغلاق وقصر قلبه المحاط بسواري الصمت قد أنفتح علي الأقل علي باب صغير.

خلال شهور قليلة كنت قد صعدت بإدراج الصداقة إلى مكانة مميزة لدي فارس، فكنت تقريبا صديقه الوحيد أو على الأقل الأكثر تفهما وإدراكا لطباعه عن غيري، ومع الوقت أصبح فارس من يبتدأ المواضيع معي أحيانا ويشاركني ويشاركه كل ما يمكن مشاركته في المدرسة وأيضا خارجها، لن أكذب وأقول إنني لم أمتلك أي صداقات قوية منذ أن أتيت إلى هنا، لكن يظل فارس المفضل لدي.

مر الوقت ومرت الأيام وكل شيء يسير بشكل طبيعي، حتى أَتى ذلك اليوم، كعادتنا القديمة أخبرت فارس أن أرافقه إلى المدرسة وبالفعل مررت وأخذته في طريقي وكان بقميصه المدرسي المتسع وبنطاله الأسود وقد ظهرت عليه معالم البهجة فسألته في سرور:

"تبدو همتك اليوم في عنان السماء، أتشاركني الخبر السعيد"

فنظر إلى بطرف عينه ورأسه متجهة إلى الأرض وابتسمت ابتسامة خفيفة وقال:

"لا لا شيء، من الأيام القليلة التي أستيقظ فيها مرتاح البال"

فهززت رأسي وقلت

" التمني لك راحة البال تلك دائما"

وأستمرينا نتحدث حتى وصلنا وتركته عند بوابة المدرسة لكي أصعد أنا إلى فصلي وهو ينطلق إلى فصله بعد أن أكدت عليه انتظاري له بعد الدوام الدراسي.

أنطلق اليوم وفي تمام الساعة الواحدة ظهرا كنت قد أنهيت حصصي وانتظرت فارس عند البوابة كما اتفقنا في بداية اليوم، بالفعل أَتى سريعا وانطلقنا إلى طريق عودتنا نتشاور عن يومنا الدراسي وغيره من المواضيع لكي نتسلى حتى نصل ولكن حديثنا المرح والملء بالشغف لم يطل حتى أتت موجة الخوف فشققت سفينة الراحة والطمأنينة، وجدت فارس بلا إنذار مسبق يحدق في الأرض والهلع يكتسح عينيه المتسعتين فزادتها وسعى وأخذ الصمت يجول وتصول عدة ثوان لا يستجيب فيها فارس لكلامي معه حتى أمسكت بكتفه فنظر إلى وقد اصطكت أسنانه ورفع حواجبه كأنه استفاق من حلم ما فسألته في قلق:

"فارس؟؟"

فرد قائلا

"لا، لا شيء، فقط شعرت بألم مفاجئ في قلبي"

فقلت له:

"ألم مفاجئ؟ أستريح سأحضر مساعدة وأعود سريعا"

فقال وصوته يتخلله نهج أنفاسه:

"لا، لا أرجوك، فقط بعض الراحة وأعود إلى منزلي"

فجلست معه بضع دقائق حتى قل عنف صوت أنفاسه وبدأ الهلع يقل نسبيا وينزاح عن ملامحه حتى قرر إكمال المسير وظلت عيناي تراقبه وحل الصمت في تلكما الدقيقتين التي سبقت إكمال المسير حتى توقف مجدد وتكررت نفس المشهد البشع ولكن تلك المرة أنطلق يهرول ويشق الريح كالمجانين لا يتلفت حتى أو يرد علي صيحاتي إليه فركضت خلفه ولكن لم تطله أقدامي فأنطلق بسرعة غريبة مما دل علي خوفه المبالغ فيه، فعادة تزداد قدراتنا الجسدية عندما يزداد هرمون الاندرالين، فعلمت أنه يخفي شيء ما

وفي ظل تلك اللحظات من التدبر أختفي من نظري وسط تكدس وازدحام السكان فقررت أن أنطلق إلى منزله وهو بديهيا أول ما زار عقلي، وخلال دقائق كنت في أول شارع منزله وقد لفت انتباهي تجمعا من البشر هناك، يبدو أن هناك حادثا ما وأيضا رأيت شابا يرتدي قميصا أزرق ويقف بلا حراك قبل ذلك التجمع، فقلت في نفسي "فارس؟" وانطلقت أركض وكل لحظة تمر أتأكد فيها أنه فارس، وفي ذات الوقت ذاك المظهر المصحوب بأصوات همهمة وصريخ بعض النساء في ذلك التجمع قد زاد من قوة دقات قلبي وأرعدت فرائصي، وأخيرا أمسكت بفارس لكنه ببطء انتشل نفسه من يدي وسار بخطاه المرتعشة يتخبط بين الحاضرين حتى عبر وأنا في ذيله فتجمدت قدماي فجأة، ما ذلك المنظر البشع؟ انتظر!!؟ جثمان السيدة تميمة؟ تجمد بي الوقت للحظة وهرع قلبي يدق بجنون ونظرت إلى فارس مترقب ردة فعله فلم تتحمله قدامه وسقط المسكين في صمت علي الارض فركضت إليه ومعي أحد الموجودين لإنقاذه

انطلقت بفارس إلي أقرب سيارة أجرة لأوقله إلي أي مشفي قريب لأنه قد غاص في سكونه، نعم أغمي عليه من أثر الصدمة، لا أعلم ماذا أفعل عندما يستفيق؟ إلى أين سيصل قطار حياته؟ ما مدي بشاعة المحطة التي أوشكنا علي زيارتها؟، كل تلك الأفكار عامت في عقلي أثناء محاولاتي لأفاقته ولكن باتت محاولاتي بالفشل، الجدير بالذكر أنه كان معي رجل في تلك السيارة، نفس الشخص الذي ساعدني في حمل فارس منذ قليل، كان رجل أصلعا عريض المنكبين، عيونه الجحظة تعلوها حاجبان سميكان يكادان يلتقيان وأنفه المدببة الغليظ يعلو شفاها بنية ظلا طيلة الطريق مطبقتين علي إحداهما الأخري، أخبرني أنه من جيران فارس وكان عائدا من عمله عندما رآه بالصدفة يركض كالمجانين حتي وصل إلي شارعه وعرف الأمر برمته، لم أمتلك الوقت لكي أرد أو اتغلغل

في أي تفاصيل، فقد قطع ذلك الحديث القصير صوت سائق الأجرة وهو يتعجل بنا بعد وصولنا.

انطلقت وراء ذلك الرجل الأصلع وهو يحمل فارس ويطقطق بحذاءيه سميكي النعالي على الأرضيات المظللة بالإضاءات الباهتة التي سبقت قسم الاستقبال، حتى قابله بضع من الممرضين يتقدمهم طبيب عجوز طويل القامة ونظارته الدائرية تزين عيناه الحادتان مثل الصقر فتزيده خبرة وإلماما، وأنطلق بمعطفه الأبيض يتطاير يمينا ويسارا يهرول ليتم تجهيز الغرفة لفارس سريعا ولم يطل الأمر حتى تم تجهيز كل شيء، ولكن مرت بضع دقائق ولا شيء يتخلل ذلك الصمت إلّا صوت جلبة الممرضين بالداخل فوصل بقلقي إلى الذروة وظللت أعض في أناملي وأهز ركبتاي بجانب ذلك الرجل الذي رافقني منتظرون علي تلك المقاعد المعدنية، حتى سمعت صرير باب غرفته يتتبعه خروج ذاك الطبيب الطويل، فوثبت واقفا وعيناي ترتعش وتتفحص معالمه وهو ما أرعبني أكثر، وجهه قد عبس وتبلد وحاجبيه وشفتيه ضمت وانحسرت، فسأله في تلعثم:

"كيف حال فارس؟ أكل شيء بخير؟"

فرد في تأسف:

"حاولت، لكن إرادة الله فوق كل شيء"

فنظرت إليه وقد برقت عيناي حتى ظهرت منها الأوردة، وأردفت وبداية البكاء يختلط بصوتي:

"لا... لا"

وانطلقت إلى غرفته فوجدته راقدا ومغطيا بقطعة قماشية زرقاء فأبعدتها عن وجه، شفتاه المزرقة العابسة تشققت، ويده اليسرى تتدلي بمحاذاة سريره، وما زلت تلك الأنابيب موصلة بعروقه،

بدأت أهز جثمانه وأناديه باسمه... يا فارس، يا فارس! والدموع قد أغرقت وجهي إلى أن بدأت تقطر علي الأرض... فاقترب مني ذلك الرجل الأصلع وحاول أن يبعدني عنه برفق وقال لي بتقاعس إنه قد توفي، أتركه للميت حرمته، فدفعته ونزعت يده عني قائلا:

"لا، لم يمت، أنا ما زلت أشعر بوجوده!"

وأكملت تشبثي وهزي له حتى بدأ صوته ينبض ويظهر في الشاشة من جديد، فنظر إلى أحد الممرضين المتواجدين في دهشة، ونادي الطبيب الذي كان واقفا خارج الغرفة فدلف مسرعا وسريعا أحضر جهاز الصدمات الكهربائية بعد أن أعطتنا تلك الدقات الخافتة بصيصا من الأمل بعدما احاطتنا كحلة من اليأس، وصاعقة وراء الأخرى وبدأت تلك النبضات الضعيفة المستغيثة تزداد قوة ووضوح حتى عادت إلى مستوى الأمان، فتنفست الصعداء وذلك الرجل الأصلع تغتنمه السعادة ونفس اللحظة يتخلل تلك السعادة نوعا من عدم التصديق فكانت تلك نسخة متطابقة مما كنت عليه، ألتفت إلينا الطبيب باستغراب وخلع نظارته وأخذ نفس عميقا وقال:

"لا أفهم كيف، ولكنها معجزة نابعة من رحمة الله، سيقضي اليوم برمته هنا حتى تستقر حالته"

وأرتدي نظارته وألقي نظرة على فارس وهو لا يزال غير مدرك ما حدث، فقد توقفت نبضاته لمدة ليست بقصيرة ولم تفد الصاعقين الكهربائية منذ قليل.

غمرتني سعادة غير طبيعية وأزيح عن صدري تلك الأطنان من النكبات ولكن اضطراب عواطفي كان حاضرا فما زال وفاة السيدة تميمة وذاك المشهد محفوران في ذهني وحالة فارس وما تحمله الأيام من عقد يتخذان مقعدين في أفكاري وتدبري ويتصارع قلبي بنجاة فارس ضد عقلي بما فيه من صراع آخر عما حدث أو ما سيحدث عن قريب.

ظللت منتظر استفاقة فارس في الخارج قرابة الساعتين التي أَتى خلالها بضع من أقاربه والوحيدة التي تعرفت عليها منهم كانت عمته كرملين، سيدة في منتصف الخمسينيات، خمارها الأسود يكتنف جسدها الممتلئ القصير فلا يظهر سوي وجهها الأبيض المرصع بالمناطق المتوردة، قضيت عمته اليوم بطولة معه أما أنا فقد اضطررت أن أرحل قبل أن أتأخر أكثر عن أمي، وأخذت رقم هاتف أحد الممرضين للتواصل والاطمئنان على حال فارس إلى حين زيارته له غدا، بحثت بعيني سريعا عن الرجل الأصلع فقد انشغلت لهنيهة بقدوم أقارب فارس فسألت أحد الموجودين فأخبرني أنه رأي رجل بصفات مشابهة في نهاية تلك الطرقة منذ بضع دقائق فعلمت أنه قد رحل بعد أن اطمأن علي فارس وبعد أن أكاد اطمئنانه ذاك بمجيء أقاربه فينطلق هو إلى منزله أو ما وراءه من أشغال، أما أنا فقد انطلقت إلى منزلي و تملؤني مشاعر القلق وغرف عقلي تبعثر أثاثها من النكبات والأفكار، الشفق أوشك والطرق مزينة بحمرة السماء والليل قادم وكاد يعلن دقائقه الأولى وخلال ثلث ساعة تقريبا من السير المحفوف بالهموم كنت قد وصلت إلى بيتي واستقبلتني والدتي بقلق وحفاوة ثم قالت:

"سمعت بخبر وفاة والدة فارس ولكن لم أستطع أن أبرح موضعي وأنت في الخارج ولا أعلم مكانك، ألم أخبرك أن تقتني هاتفك مهما حدث؟"

فتأسفت لها وقلت:

"أسف يا أمي، تأخرت بسبب فارس فقد تدهورت صحته وحجز في مشفى الأميرية"

فسألتني في قلق وحزن عما حدث، وأخذت أسرد لها جميع التفاصيل وقضيت بقية اليوم وعقلي مشغول بالتفكير، ولا أستطيع أن أرح لي جفنا حتى قررت أن أتصل علي ذلك الممرض الذي أخذت رقمه فلم أجد أي رد، محاولة وراء الأخرى ولا جدوى، وزائر القلق كاد يحطم ذلك الباب من التماسك فأخذت في التجوال ذهابا ومجيئا تحت إضاءات منزلي المصفرة أرتمي قليلا على فراشي فأحدق في السقف وتارة أنهض لأكمل تجوالي وقلة أخري أشاهد فيها التلفاز، وما يجمع كل تلك الأمور أنني ما كنت لا في بحر تفكيري لم أركز في أي شيء آخر، حتي أَتى ميعاد نومي فألقيت بنفسي علي فراشي وصوت دقات الساعة يتخلل ذلك الصمت وجفوني ترفض أن تلتقي والساعة الثالثة
صباحا اقتربت وما زالت غير قادر علي النوم حتي فجأة غفوت فجأة وراودني حلم قصير لا أتذكر منه أي شيء ألّا صوت فارس وهو يتفوه بكلام غريب فنهضت في فزع ونظرت إلى الساعة المعلقة علي الحائط فوجدت العقارب تشير إلى الثالثة والنصف، لم انم سوي نصف ساعة؟ فنهضت وغسلت وجهي بالماء ونظرت إلى المرآة ..

فوجدت وجهي قد إنحال ليطابق وجه فارس، فاصطكت أسناني واندفعت للخلف ساقطا علي الأرض من الهلع، ما هذا!!، وسريعا خرجت من الحمام ودلفت إلى غرفتي وصوت دقات قلبي يكاد يصل إلى غرفة أمي، جلست علي سريري وتنفست الصعداء وقلت لنفسي إنه ضغط نفسي مؤقت، مجهود كبير في يوم واحد، أحداث مؤلمة وبشعة، تخطيت ميعاد نومي وغزارة تفكيري كالسيول أنهكت عقلي ووصلت به إلى الحافة وأنا في العادة لا أفكر كمثل ربع هذا التفكير، يجب أن أنام، لا بد من أن أكون قد تعرضت لاكتئاب مؤقت مما حدث اليوم، فردت ظهري وحاولت أن أنام

مجددا فأسيتقظت... أين أنا؟ مكان ضعيف الإضاءة يشبه غرف العمليات، نعم رائحة العقاقير تلك نفاذة وتشبه التي شممتها عند زيارتي لفارس، ما زلت لا أفهم أي شيء، ما هذا المكان!؟، ما الذي أحضرني إلى هنا وكيف! وفجأة اشتعلت الأضواء، غرفة فارس؟ نظرت خلفي فوجدته يبحلق اتجاهي بعيون باردة خالية التعابير، لا يستجيب لندائي له، ما زلت لا أفهم أي شيء!! ماذا يحدث؟؟، فجأة تشققت الأرض من أسفل فارس فركض أمد يدي لألحقه لكن سابقني الزمن وهوى في الظلام الشاسع، تحت تلك الغرفة لا غرف أخرى ولا وجود، فقط الفراغ الداكن وصوت الطنين حاد يختلط بالهمس في الأجواء...

فجأة استيقظت في هلع وأخذت أتنفس الصعداء وصدري يعلو ويهبط كالموج، أخذت أنظر حولي في جنون حتى لمحت ساعة الحائط، وأدركت أنني في غرفتي، الساعة الحادية عشر ؟ لقد غطت في نوم عميق، ولكن ما تلك الأحلام البغيضة؟ سرت أترنح علي أثر إرهاق اليوم السابق حتى وصلت إلى الصالون حيث وجدت والدتي تتحدث مع أحدهم بواسطة هاتفي الذي تركته هناك قبل أن أنام، وهي تستمع وتحدق بي في قلق وعيناها تحمل لمعة من التساؤلات فأنهيت المكالمة وسريعا سألتها:

"أمي؟ ماذا هناك؟؟"

فردت وقالت:

"ممرض يدعي زيدان أتصل بي"

فقلت:

"نعم، ممرض فارس، فارس تحسن؟ هل هو بخير؟"

فردت وقالت:

"نعم استفاق لكنه في صدمة ولا يستجيب أو يستدرك حسب ما قاله ذاك الممرض"

أومأ رأسي في حزن وانطلقت لأزور فارس، سريعا قطعت الطرق المزدحمة المدككة بأصوات السكان وتوابين الخبز وغيره من أشكال الحياة المدنية التي ملئت الأجواء الصباحية البراقة بضوء الشمس الساطع، وصلت أخيرا ودلفت في قلق أتفحص أرقام الغرف بعيني، حتى وصلت، نعم الغرفة ٥٦، أخذت إذن الطبيب ودلفت ووجدته جالسا علي فراشه الأزرق، وقد وصلت بأوردة ذراعه اليسرى أنبوبي المحاليل، فتقدمت بخطواتي مسرعا تجاه واحتضنته ولكنه لم يبادلني ذلك العناق، فكان كلام زيدان صحيحا، فارس في صدمة مؤقتة أثر تلك النكبة الأخيرة، حاولت حتى أن أشتت شروده ذاك ولوحت بيدي أمامه ولكنه لم يلحظ وجودي حتى، فتراجعت والحسرة تغطي وجهي والضيق يلتحف بصدري، واتخذت كرسيا بالجوار وجلست أمامه بعض الوقت أحاول التخفيف عنه، اعتقدت أنه على الأقل يسمعني أو ما شابه، وظل قرابة العشر دقائق أحدثه حتى دلفت عمته كرملين
ورحبت بي ونبرتها تبوح مما فيها من كدر، وبعض قليل أَتى ذلك السيد الأصلع الذي لم تتح لي الفرصة التواصل معه الفترة السابقة، دلف مرتديا قبعة سوداء تشبه تلك خاصة رعاة البقر نوعا ما، وصوت طقطقة حذائيه سميكة النعالي قد أعلمني بوجوده قبل أن يدلف بالفعل، واطمأن علي فارس وقبل أن يرحل طلبت منه حديثا قصيرا بالخارج إذا أمكن ووافق، وحينها تمكنت أخيرا من التعرف عليه، سنقول من الآن، السيد قبيل، أحد أصدقاء والد فارس القدامي، الأستاذ قبيل في الواقع هو أخصائي مكتبات ومعلومات في جامعة القاهرة، تعرف علي والدا هناك في كلية الآداب وجمعتهم زمالة ولدت صداقة استمرت طيلة فترة دراستهم ليتخرجا سويا ويعمل قبيل كمعيد في نفس جامعته وينطلق والد فارس

الأستاذ غياث ليعمل كأستاذ للغة الفرنسية في إِحْدى مدارس التعليم الإعدادي في حي الأميرية، ذلك قبل أن تفترق تلك الصداقة بوفاة الأستاذ غياث بحادث سير ليقتطف شبابه ويرحل تاركا زوجته وهي حبلة في الشهور الأولى بطفلها الاول والوحيد، كان ذلك مضمون حديثي القصير مع أستاذ قبيل قبل أن يرحل وقد ترك لي رقم هاتفه في حال أردت منه شيئا ما وهو سيكون دائما حاضرا في حال أراد فارس مساعدة ما، وغادر وصوت طقطقة حذائه أخذ ينحسر حتي أختفي ودخلت غرفة فارس مرة أخري لكي ألقي عليه نظرة قبل أن أرحل وأتركه مع عمته ومن حضر من معارفه وأقاربه،لكي أعود تارة أخري إلى منزلي تحت اضاءات الشفق الحمراء،قضيت الليل بطولة على فراشي أحدق في السقف المضاء بخفة علي أثر ضوء المحالّ النافذ إلى غرفتي، حتى قررت أن أنهض وافعل شيئا مختلفا لكسر تلك الدائرة من التأفف، فجلبت إحدى روايات "شيرلوك هولمز" وبدأت أقرأها من جديد فشغفي للبوليسية عظيم، فقرأت روايات كثيرة تخص قضايا والغاز وقتلة متسلسلين حتى أني قرأت بعض الكتب التي تخص علم النفس الإجرامي! ومع ذلك قدراتي التحليلية تكاد تكفي لكي أستنتج مسألة رياضية من ذواتي الصف السادس الابتدائي، فيبدو أنني أضيع وقتي ولكن مع ذلك يظل الأمر ممتعا، قرأت صفحة وراء الأخرى تحت إضاءة هاتفي متخللة العتمة التي اكتنفتها الحوائط ،وبعد قليل ثقلت عيناي وغطت في نوم عميق.

أسيتقظت اليوم التالي و زرت فارس و حاله كما هو ، يوم وراء الآخر ، اسبوع وراء الآخر و أخيراً بعد ٢٧ يوم جاءني أخيرا خبر مفرح يقطع ذلك القطار المنكوب من الأحزان و الهموم ، كنت عائداً من مدرستي في تمام الساعة الثانية ظهراً و كانت حالتي النفسية قد هبطت الي القاع و الاكتئاب يلتحفني و الجو راكد يكاد الهواء يكون غير محسوس حتي أتاني اتصال مفاجئ من

زيدان ، سريعاً ردت عليه و أغتنمتني فرحة عارمة و أنطلقت الي المشفي فوجدته يبكي في غزارة ، علمت أنها خزائن دموعه علي مدار الأسابيع السالفة ، فتقدمت سريعاً و ناديت بأسمه فألتفت لي و عانقني بقوة تكاد أظافره تخترق قميصي و أخذت دموعه تنهمر كالسيول حتي أغمرت كتفي فأخذت أواسيه و اخفف عنه قدر المستطاع و بعد نصف ساعة تقريباً هدأ نحيبه و قلت دموعه و قام بفرد ظهره من الانهاك و التعب ، قضيت معاه ذلك اليوم قرابة الثلاث ساعات حتي اطمأننت عليه و ودعته و عدت الي منزلي.

عاودت زياراتي لفارس يوماً بعد يوم ، و خلال ثلاثة أسابيع تقريبا شهدت تحسنه المرئي و تبدل البكاء الغزير ببكاء أقل حتي صار دموعاً قليلة حتي انحسرت و شبه انعدمت في الاسبوع الثالث ، و شهد الأسبوع الخامس عودة فارس الي حالة معقولة جدا و هو ما أشعل نيران سعادتي و أزال عني عبء استمر لشهرين ، و خلال الأسبوع السادس كان فارس قد بدأ العودة إلي مدرسته و مسار حياته الطبيعي و كان ذلك قبل امتحانات نهاية العام ببضعة أسابيع و لكن ضيق الوقت لم يمنع ذلك العقل الفذ من أنقاذ صاحبه ، بل درس و أجتهد و عبر تلك المرحلة بتقدير ممتاز و هو لم يثير دهشتي ، بل علمت منذ البداية أنه عينة بشرية مميزة.

بعد مرور ٥ سنوات ..

عبرت تلك النكبة أخيراً و عادت الأمور لطبيعتها و استمرت السنوات القليلة بعد تلك الحادثة بشكل جيد حيث عاش فارس مع عمته كرملين و ألتحق بكلية الطب و هو ما مال عليه قلبه في نهاية تعليمنا الثانوي و لكن لم يكن انتحار السيدة التميمة هو الانتحار

الوحيد الذي خلا من المنطقية و السببية بل تكررت حالات شبيهة لتلك بصورة غزيرة في الفترة السابقة ، شخص أو اثنين يومياً و فقط في حي الأميرية و هو ما أثار الرعب و الهلع بين الأهالي ، و غرابة ذلك اللغز وصلت إلي الذروة ، لا سبب ، لا دليل ، لا نظام محدد ، لا آثار ، لا شيء البتة يدل علي سبب وفاة أو انتحار تلك الحالات التي يزيد جميعها عن عمر العشرون عام ، لماذا عشرون تحديداً ؟ و ما مقياس و معيار ذلك الاختيار ؟ بدأت البحث في ذلك الأمر و لم استفد الا بمعلومات قليلة و يدفعني الفضول أن أعرف بل تدفعني عاطفتي أن أجد حلا ما لإيقاف ذلك الموج الجارف للأبرياء

الفصل الثالث

« حلقات القدر »

فارس

مرت خمس سنوات ، مرت أيام ، مرت دقائق و ثواني ، اختلفت المسميات و المقادير و المقاييس و لكن جميعها لي سواء ، مر

الوقت و لا جديد في فكري أو أفعالي ، مر الوقت و مازلت أشعر أنني مازلت أنا كما ولدت و وعيت علي الدنيا.

بعد النكبة الأخيرة بوفاة والدتي أو سنقول أنتحارها و انا أعيش وحيداً في منزلي ، منزلي ذو الغرفتين المطلي بالدهان الأحمر الداكن في حي الأميرية و استقبل بعض الزيارات بعيدة الفواصل من أقاربي خاصة عمتي بمعدل زيارتين في الشهر علي أغلب الأحوال ، و القدم الوحيدة التي استقرت علي المجئ كانت أقدام صديق الطفولة مراد ، أعتاد مراد علي زيارتي بشكل مستمر منذ ذلك اليوم و الي الآن لنتسامر أو نتمشي قليلاً أو أعرض عليه الجديد من رسوماتي و يعرض علي ما وصل إليه من براعة و تحليل كونه يحلم أن يصير يوماً ما مثل هولاء المحققين في الروايات و قد شجعته علي ذلك و قد زادت حماسته في الآونة الأخيرة بسبب تلك الظاهرة القاتلة ، ظاهرة بدأت تشرع أولي خطواتها علي اراضي الأميرية منذ أسابيع ، كل من بلغ العشرين و أذنب يموت عاجلا ام آجلا.

سأكون صريحاً و أعترف أن الأمر يبدو لي شيء يستحق المحاولة ، بل هدف و لو قصير المدي ليقطع شريط حياتي الراكد و في ذات الوقت محاولة الوصول إلي العدالة أمر نبيل و ربما انقذ حياة العديد من الشباب، و لكن مع احترامي الكامل لمراد فرغم أنه قد تحسن كثيراً و شغفه دفعه للتطور و المعرفة ، و لكن العديد من الأبحاث و التحقيقات لم تصل إلي أي شيء ، مع ذلك انا لم أحبط من عزيمته لعله يجد شيء يغير مجري كل شيء، فقد عرض علي

بعض ملاحظاته و هي تبدو لي ذكية و منطقية و لكن سريعاً أن حبطتها الحوداث التالية و هدمت كل افتراضاته.

كان قد أخبرني مراد أنه سيزورني اليوم في تمام الساعة السابعة مساءاً لأنه لم يزورني منذ بضعة أيام و بتشوق لرؤيتي و يعرض علي شيء مهم قد قال إنه سيكون بداية هامة لقضية أهم و الآن الساعة الخامسة و ساعتين تفصلني و تصل فضولي عن تلك الزيارة الشغفة ، نهضت و جهزت المكان و وضبت تلك البعثرة و العشوائية من كتب و أغراض تخصني و جهزت عشاءا متواضع يتناسب مع قدراتي في الطهو ، ربما لا قدرات في الأساس و لكنه افضل من لا شيء.

ظللت في انتظار صديقي العزيز علي ضوء تلفازي القديم ذو طراز التسعينيات فلم أحب يوماً التكنولوجيا و مواكبة العصر بل فضلت الكلاسيكية و التقليدية و آمنت دائما أنها الفن الحقيقي، و صوت دقات ساعة الحائط يشق ذلك الهدوء حتي أتت الساعة السابعة و أوشك مراد علي الوصول ، و خلال ١٠ دقائق كان قد قرع الباب معلنا وصوله..

دلف و رحبت به ترحيباً حارا بالعناق و قبلات الخدين و أتخذنا مقعدين من خشب الأبنوس الأسمر، بدأ مراد حديثه بسؤالي عن صحتي و بادلته السؤال و أخذنا نتحدث عن أمور عشوائية لا تخص هدف الزيارة الأسمي، و أخيراً فرغنا من جميع تلك المقدمات و الوجبات التصبيرية لجوعا من الفضول و في ذات

الوقت انا مؤمن تمام الإيمان حماسة مراد في بدء ذلك الموضوع، فرأيته يأخذ نفسا عميقا و قال :

" كما أخبرتك البارحة ، فهناك هدف لزيارتي بعد رؤيتك و الاطمئنان عليك "

فسألته في إهتمام و قد ضمت حواجبي :

" نعم أعرف ، أنطلق فكلي أذان صاغية "

فقال :

" موضوعنا اليوم يخص تلك الظاهرة "

فقلت له :

" توقعت ذلك ، أعرض علي كل التفاصيل و ما توصلت إليه "

فإبستم مظهراً أسنانه الناصعة و أخرج من جيبه ورقة صغيرة و قال هذا ما توصلت إليه و بدأ قائلا :

" أول شيء و متأكد أنه ملحوظ بشكل عام ، أن عمر الضحايا دائماً فوق العشرين عام "

و أكمل :

" ثاني معلومة و هي قد تكون غريبة قليلاً ، أن جميع الضحايا لديهم صفات مشتركة الي حد ما "

فسألته :

" كيف؟ "

فقال :

" أنظر هنا "

و أشار إلي ورقته بأصبعه السبابة و أكمل :

" ذلك الجدول يحمل تفاصيل وفاة بعض الضحايا ، ألقي نظرة "

فتناوت تلك الورقة و قرأتها بصوت مسموع :

" اسلام اياد.. أحد ساكني منطقة القفاصين ، سرقة أحدي المحلات ، تشاجر مع أحد جيرانه منذ أسابيع قبل وفاته .. محمد علاء .. تشاجر مع زوجته و تعدي عليها أكثر من مرة في الفترة القريبة السابقة .. أسمهان كريم .. من الأميرية أتهمت سابقاً بخيانة زوجها .. "

توقفت عن القراءة و نظرت إليه بنصف عين و قلت :

" قد قضيت اياما في جلب تلك المعلومات صحيح "

فرد قائلا :

" نعم قد كرست مجهودا عظيماً لذاك اللغز "

فردت عليه مبتسماً :

" نعم هذا واضح ، أري ان فرضيتك تلك تقول إن الضحايا لا بد أن يكونوا مذنبين ؟ "

فرد قائلا :

" نعم تماماً ، ألا تلاحظ غرابة ذلك التسلسل ؟ ، يبدو أن الموضوع قضية أخلاقية أكثر من كونها مجرد سلوك عدواني ، و لكن ليس كل ذنب يستحق القتل بناءاً علي ذاك التسلسل ، السرقة ، القتل ، الخيانة و الأذي الظالم هم فقط العلامات الواضحة حتي الآن "

و أكمل

" انا أكملت عامي العشرين و لم أمت بعد ، رغم أنه ربما دوري لم يأتي و لكن بقائي علي قيد الحياة يضع نظريتي تلك بنسبة ٥٠٪ صحيحة لأنه الأمر عملة و الوجهين هو أن يكون دوري سيأتي أو أنه غير موجود من الأساس ، و مع ذنب تلك الضحايا ، أستطيع أن أقول إن احتمالية خطأي ضعيفة و تكاد تكون معدومة "

فقلت له

" نعم .. لديك حق ، تعتقد للأمر علاقة بقوة خارقة للطبيعة ؟ "

فقال :

" لا ، لست متأكد ، القوة الخارقة للطبيعة كانت لتقتل أعداد أكبر بمراحل و في أماكن متفرقة "

و أكمل

" حتي الآن لم أتوصل لأي شيء آخر ، التوصل لتلك المعلومة البسيطة قد أخذ مني قرابة الأسبوع "

فهززت رأسي بالايجاب و قد ضممت شفتاي فوقفت و تحركت الي نهاية الصالون و واضعاً يدي علي ذقني و أحاول التفكير ثم التفتت إليه و قلت :

" أعتبرني شريكك في البحث من اليوم "

فوقف و قد أنفرجت أساريره و اتسعت عيناه و لمعت و أنطلق قائلا :

" حقا!؟ سيكون شرف لي !"

فقلت له :

" بل لي يا بروفيسور "

فضحكنا سويا و خلال نصف ساعة رحل مراد لأنطلق انا الي مكتبي و أخرجت بعضا من الأوراق و رسمت في أولها رسمة بسيطة لقاتل يحمل ميزان يتسرب منه بعض الدماء لتكون تلك بداية قضية القاتل العادل أو ما شابه ، و سردت استنتاجات مراد بطريقتي الخاصة ثم تركت خانة فارغة و ذلك الجزء سيكون استنتاجي الخاص أن حالفني الحظ.

نهضت حاملاً تلك الورقة و أخذت أتمشي ذهاباً و مجيئا تحت اضاءات غرفتى الخافتة اتدبر في ذلك الأمر، حتي قررت و استقررت علي أول خطوة أخطوها في ذلك الطريق مجهول النهاية ، يجب علي أن أعرف تسلسل تلك الجرائم ، متي و أين و كيف ، الحصول علي إجابة تلك الأسئلة سيقلل العديد من الاحتمالات لكي نصل الي الفاعل ، رغم أنه لا يوجد دليل انه قاتل في الأصل و لكن لا يوجد اي تفسير منطقي آخر، لكن كيف ينفذ تلك الجرائم بلا أي اقتراب من الضحية ؟ لا لن أشغل بالي بذلك الآن ، لتلك النقطة وقتها لاحقاً، كل ما يهمني في الوقت الحالي هو تقليل الإحتمالات ، فلو تلك الجرائم تكثر في الصباح فعلي الأقل ستنحسر الاختيارات علي عاملي الليل و العكس صحيح و لو إستطعت تحديد مدي ساعات محدد فستنحسر الاختيارات الي ربع او حتي خمس السكان ، نعم إيجاد المتهم يتم عن طريق استبعاد ما يمكن استبعاده و حصر الاختيارات المتبقية و لكن رغم أنني واثق أن مباحث الشرطة قد نفذت كل تلك الخطوات و لكن هناك ما يدفعني أن أحاول و أضع ثقة في طموح و طاقة مراد ، و لكن ماذا اذا كان ذلك المجرم ليس أحد ساكنين الأميرية من البداية أو مواعيد عمله

غير ثابتة ماذا لو أنه لا يعمل من الأساس ؟ ماذا لو أن أفتراضنا أنه إنسان أو قاتل من الأساس مجرد وهم خاطئ؟ البداية معقدة بشكل مزعج و لكن لا درس بلا محاولات و يجب علي أجرب حظي و أرمي ذلك النرد من القدر و أري اي وجه من أوجهه سيظهر لي الفترة القادمة.

نهضت الي حاسوبي القديم و لكنه وفي بالغرض و اكثر و بدأت أبحث عن تلك الوفيات و تفاصيلها فعادة تلك الأحداث غير المعتادة تسجل علي المواقع الإخبارية ، و بالفعل وجدت العديد من نتائج البحث المتعلقة بذلك الأمر، في غرفتي المظلمة المكتنفة بشعاع ضوء ضعيف علي أثر شاشة الحاسوب بدأت أصابعي تنطلق في أوراقي لتسجل كل ما أجده و كل ما يمكن الاستفادة منه، فقدت وجدت أن الوفيات بنسبة كبيرة تحدث في الليل المتأخر خاصة بين الساعتين الواحدة صباحا و الخامسة صباحاً و يتم الإعلان عنها في نفس صباح اليوم علي الأغلب ، علي الرغم من وجود بعض الوفيات القليلة خارج ذلك الإطار الزمني و ذلك وارد لأن الفاعل ليس مبرمج و هو في النهاية ربما انسان قابل للخطأ و عدم الرتابة ، اذا القاتل في الأغلب هو شخص لا يعمل في الليل، لأنه يظل مستيقظ حتي ساعة متأخرة من الليل و هي احتمالية ضعيفة جدا أنه يعمل في الصبح فمن المستبعد أن شخص طبيعي يستيقظ الساعة السادسة صباحاً و ينام الخامسة بل بعدها علي الأغلب ، فإنه من الواضح أن حلقة الهدف اليومية تبدأ من ما بعد الظهيرة و هو يقترب من ميعاد إستيقاظه و ينتهي يومه في السادسة صباحاً و مع بدء عمليات القتل في أغلب الأحوال بعد الثانية عشر منتصف الليل فإن عمله أو ما يشغله بشكل عام ينتهي في تمام الساعة الثامنة الي

العاشرة ، في ذلك المدي ، و عندما يتفرغ فإنه يبدأ في تنفيذ خطته بعد عودته و راحته ، ساعتين او اكثر كافيتين للراحة ،و ما يدفعني أن أصدق أنه يعمل هو المدي الضيق نسبياً لمواعيد الوفيات ، فلو الفاعل شخص متفرغ بشكل كامل سنجد عشوائية في وقت لقي حتفه الضحايا ، تارة صباحاً ، تارة مساءاً ، تارة فجراً و ما الي ذلك ، و لكن الحال هنا مختلف تماماً.

فكتبت في أوراقي الخانة الجديدة ، أن الفاعل غالباً قد يكون عامل فترة نهارية و لكن الأمر لم ينحسر بشكل كافي ، عمال الفترة النهارية يمثلون عدد كبير من السكان ، بل الأغلبية العظمى و لكن مع ذلك اقتربنا و لو خطوة صغيرة نحو حل تلك المعضلة.

لاحظت أيضاً أن القتلي جميعهم مات في منزله، الفاعل صعب أن ينجح في إقتحام كل تلك المنازل و هو يؤكد أنه لديه وسيلة ما لتنفيذ أفكاره دون أن يختلط مباشرة مع الضحية ، و لكن لماذا في منازلهم بالتحديد ؟

لكن هنالك خطوة مهمة يجب أن اتخذها و هي التأكد أن الفاعل هو إنسان في الأصل ، سأتصل مراد فلدي خطة لا بأس بها و ستكون صنارة الطعم ، و لكن لم أمتلك الوقت فاتصل مراد فجأة يسالني عما وجدته أو وصلت إليه فأخبرته :

" تتبعت مواعيد الوفيات و توصلت أن الفاعل يعمل ما بين الظهيرة الي ما قبل منتصف الليل و لكن هناك شيء احتاجك فيه "

فرد :

" سأكون عندك غدا و نناقش الأمر "

قررت أن انهي يومي و اتجه الي فراشي استعدادا لموجة الكد و التعب غداً فورائنا يوم شاق يحمل لنا الكثير من الاجابات ، كنت قد جهزت الخطة و كتبتها في احدي أوراقي و طويتها في معطفي و نمت بعدها نوما عميقاً حتي قطعتني تلك الأحلام المزعجة ، لا أتذكر منها أي شيء سوي تلك الأيادي الغليظة المليئة بالحبر، لم أعلم لمن و لم أهتم في الواقع و قضيت الصباح بطوله في إنتظار مراد حتي أتي فرحبت به و جلسنا في غرفتي حيث جلست علي سريري و أتخذ مراد أحدي الكراسي و جلس بموازاتي و أشعل سيجاره مرتديا قميصاً أبيض و بنطال أسود من الجبرتين و سألني:

" ما الخطة التي تتوق لنضع فيها أيادينا يا فارس ؟ "

فبدأت قائلا :

" أريد التأكد من شيئين هامين ، الأول أن هناك قاتل تحديداً انسان و ثانياً أريد أن اعرف اذا يمكنه قتل الضحايا دون مقابلتهم "

فأنطلق سريعاً :

" أشرح ، يبدو أنك صاحب العقلية الافضل هنا "

فأبتسمت و قلت

" سأستخدم نفسي كطعم "

فوثب واقفاً و قد تبدلت معالمه المتحمسة بتوتر و تلبد و أردف في قلق و قال :

" لا بالطبع! ، هل فقدت عقلك !! ، الموضوع أشبه بانتحار! "

فأخبرته :

" أعلم خطورة الأمر و لكن ثق بي تلك المرة "

فظل علي رفضه حتي وافق في النهاية بعد محاولاتي لإقناعه فقال لي

" و لماذا لا اكون انا الطعم !؟ "

فقلت له :

" لن اخاطر بك ، بل إنه ليس بتقليل منك و لكني سأنفذ تلك الخطوة بشكل أكثر اتقان "

فنفخ نفخة خفيفة و سألني :

" ماذا سنفعل إذا ؟ "

فقلت له :

" سأتظاهر اني أتشاجر معك بل أتعدي عليك في الواقع و ستلعب انت دور المظلوم و سأظل اليوم بطوله في غرفتي بعد ذلك مباشرة و أتخذ الإحتياطات الازمة "

و أكملت :

" لو لم أمت فإن الفاعل يحتاج لمقابلتي أولا، و معني ذلك أنه بالتأكيد انسان و معناه إن الضحايا قابلوه قبل وفاتهم و أنه نفذ جريمته تلك فب نطاق ضيق و بفترة محددة لا أستطيع تخمينها حتي الآن "

فقال لي :

" و لو مت !!؟ "

فقلت له :

" لدي شعور أنني لن أفعل و لكن سأظل طيلة الفترة المقبلة في حرص شديد حتي تمر تلك النكبة ، لا تقلق ."

و أكملت :

" أستعد فسنبدأ خلال ساعة "

فقال :

" الآن ! "

فقلت له :

" نعم فالفاعل من المفترض غير متاح حاليا ، في عمله أو ما يشغله و صعب أن يأتي بتلك السرعة بل ربما لن يستطيع أن يأتي في الأصل "

فرفع حاجبيه و ضم شفتاه و رد قائلا :

" حسنا إذا ، أخبرني بالتفاصيل ، كلي أذان صاغية "

و بالفعل أخبرته و حكيت له ماذا سنفعل و أتفقنا علي النص المسرحي لتلك المسرحية ، و بدأ الشجار أسفل منزلي بعدها سريعاً و يصل الأمر و ينتشر بشكل كافي حتي أزدحم شارعنا بأصوات الهمهمات و تجمعات المارة حتي أصعد سريعاً بعدها و بالفعل تم الشجار علي أفضل وجه و ربما أكثر مما أردت في الواقع و لكن قصرت الأمر علي نصف ساعة لعبت فيها دور الشخصية المستبدة و بالغت في التمثيل حتي أني أصبت مراد بكدمات في فكه و لكنه كان مستعد منذ البداية و تقبلت أن تنتشر عني سمعة سيئة مؤقتاً حتي أصل لحل لتلك الربط المعقدة من الأحداث..

أخبرت مراد أنني سألازم منزلي ٣ ايام لن أخرج فيهم مهما كلف الثمن بل لن أتعامل مع مخلوق فيهم كفترة تجريبية لتلك الافتراضية الخطرة و ذلك تجنباً لمقابلة هدفنا بالخطأ ، و بالفعل مر اليوم الأولي فالثاني ثم الثالث و لا جديد فلم يصيبني و لو خدش طفيف و الأمر الذي يجول في خاطري تم إثباته فقد علمت من مراد أن أمر تعدي عليه أنتشر بشكل ملحوظ خاصة مع حسن سمعتي و علاقتنا معا فكان الأمر أشد تمييزاً عن غيره ، فإنه من الغريب عدم قتلي في تلك المدة فاحتمالية كونه انسان تم تأكيدها لأن قوة خارقة كسحر أو عمل ما أو ما شابه لم تكن لتنتظر و أيضاً احتياجه لمقابلتي أو علي الأقل التواصل معي بشكل أو آخر من متطلبات تنفيذ عملية القتل تم تأكيدها نوعا ما إلا إذا كان يستطيع القاتل أن يفصل بين ميعاد القتل و مقابلة الضحية بوسيلة ما و هو ما سيبعثر كل شيء اعدنناه ، و معرفة ذلك الآن مستحيل تقريباً.

القاتل يحتاج الي التواصل مع الضحية قبل قتلها ، يقتل ليلاً تحديداً في الثلث الأخير من الليل ، يختار المذنبين فقط ، سأتابع الأخبار و اول جثة تقتل ستكون المفتاح الرابع في تلك القضية ، أتصلت بمراد و أخبرته أن يتابع الأخبار دقيقة بدقيقة و ألا يبرح موضعه أمام التلفاز و لو لحظة و انا سأفعل أيضاً، و بعد ساعة اتصل بي مهرولا و أخبرني ان انتقل الي القناة الثالثة بتردد ١١٦٧٨ حالا، سريعاً انتقلت و وجدت شريط الأخبار يبيح عن مقتل رجل أربعيني عن طريق تناول سائل من الحبر؟ سريعاً بحثت في بقية القنوات و المواقع الإخبارية حتي وجدت صورة له ، الحاج كريم الدين من سكان حي المرج ، كان رجلاً أسمر غليظ الشفاه و كبير الجمجمة

مقارنة بالمتوسط و رغم أن تلك الصور لم تشمل صورة ليده و لكن من البديهي إفتراض مظهر اليدين فعادة الرؤوس الكبيرة، بل جثمانه الضخم لا بد أن يقودنا الي اياد ضخمة و مات بالحبر ؟ سافقد عقلي ، تشبه تلك المواصفات ذلك الحلم المزعج الذي راودني اليوم

و اثناء مشاهدتي لذلك الخبر افوجئ بمراد يتصل فردت عليه فأنطلق في تلعثم يقول :

" هناك ٥ ضحايا أخري! في أحياء متفرقة و في نفس الساعة! "

فتجمدت أطرافي علي أثر تلك الكلمات الثقيلة ، ماذا يحدث ؟ ٥ ضحايا تارة واحدة ؟ مستحيل أن ينتقل الفاعل بين مواضع هولاء الأشخاص بتلك السرعة ، الأمر غير ممكن ، فردت عليه مسرعاً :

" أعطيني مواقع الضحايا لو أمكن "

فأغلق معي المكالمة و عاد يتصل بعد نصف ساعة و قال :

" ضحيتين في المرج ، واحدة في سانتا تريزا ، واحدة في الأميرية ، و الأخيرة في حدائق القبة "

تماسكت و تحكمت في أعصابي فجلست بعد أن كنت واقفاً مترقبا مثل الصقر، فقلت لنفسي ، خمس اشخاص تارة واحدة ؟ لو انا مكان الفاعل ما اول شيء سيجول في بالي لكي أقتل ٥ أشخاص من ٥ أماكن في نفس الإطار الزمني؟.. كيف .. و ظللت هكذا

شاردا لخمس دقائق لا يتخلل ذلك الهدوء الا صراع عقلي فرفعت حاجباي و قلت

" نعم ، لو انا الفاعل كنت سأستهدف مجموعة من الأشخاص يربطهم مكان موحد و هو مكان عملهم و لكن الأمر صعب التنفيذ عمليا لأنني سأكون محل شبهة ذلك إضافة إلي أن التقائهم بداخل مكان عملهم سيكون غير ممكن الا اذا كنت واحد من رابطتهم الوظيفية ، رغم أن ذلك الإختيار غير مستحيل و لكن سأستبعده مؤقتا "

و أكملت

" ستكون الطريقة الأسهل و الأكثر واقعية أن أجعل واحد فيهم يتسبب في مقتل البقية بنفس الطريقة التي يتم استعمالها ضد الشخص الأول "

فاتصلت علي مراد و سريعاً سألته إذا يعرف عن هوايات أو وظائف الضحايا الخمسة ، فرد قائلا

" نعم جميعهم من موظفي شركة المتحدة لإنتاج الحديد "

فقلت لنفسي " نعم كما ظننت ! " و ردت علي مراد و أخبرته أنني ساضطر أن اقطع مكالمتنا لإجراء شيء مهم

فجلبت أوراقي و كتبت بها الاحتمالات التي ذكرتها مؤكدا شبه استقراري علي الاحتمال الثاني، هكذا حتي الآن ، القاتل يحتاج الي مقابلة علي الأقل أحدي الضحايا، يحتاج الي دوافع لقتل الضحايا، و يقتل ليلاً خاصة بعد منتصف الليل و من المرجح أنه من ساكني

الأميرية حيث بدأ كل شيء، بل ربما الفاعل يعلم بطريقة ما أنني لم أذنب و تعدي علي مراد وحي من الخيال لانه من غير المستبعد استخدام مراد لقتلي فافاراضيتي تلك أنه قادر علي التحكم بالضحايا الي حد غير معلوم خاصة بعد أن علمت أن أحدي هولاء العاملين كان قد تغيب عن عمله البارحة فلابد أنه أستخدم أحد الحاضرين في التواصل مع بقية الأهداف، فيهم ذلك الموظف ، فيبدو إنه واعي لمن يقتلهم ، واعي بشكل يفوق المقدرة الإدراكية.

طلبت من مراد في نهاية ذلك اليوم مقابلتي غدا لنتناقش الي اخر ما وصلنا إليه و بالفعل أتي و أخبرني أنه شئ مهم فبدأ حديثه قائلا:

" تحدثت مع أحد معارفي من مباحث الشرطة يدعي نذير، عرضت عليه ما توصلنا إليه و أعجب بمنطقية افتراضتنا، و قال إنه سيكون يدا للعون لنا في أي شيء طالما يستطيع و لا يتعدى حدوده القانونية"

فأخبرته :

" حتي الآن لا اثق في احد غيرك فلنكن حريصين و لكن سنحتاجه قريباً فلدي بعض الأسئلة و لا يمكن للتخمين أو الافتراضات الإجابة عليها "

فسألني :

" و ما تلك الأسئلة يا فارس ؟ "

قلت له :

" اريد رؤية أحدي الضحايا بعيني "

فقال لي :

" اعتقد ان الأمر ليس بتلك الصعوبة و لكن خروجك من بيتك خطر مبالغ فيه "

فردت عليه و قلت :

" لا ، في الواقع لست هدفا للقاتل و لو كنت ، فلم سنكن قادرين علي إقامة هذا الحديث "

فسألني في حيرة و قد عقد حاجبيه واضعاً يده علي ذقنه :

" كيف عرفت ؟ ألم ينتشر خبر تعديك علي في المنطقة بأكملها ؟ "

فقلت له :

" افتراضي يقول إن الضحايا يمكن أن تؤثر علي ضحايا آخرين أو أشخاص غير مستهدفين كوسيلة للوصول إلي أهدافه ، فكما يبدو ، قتل ٥ أشخاص من نفس الدائرة الوظيفية في ظل غياب أحدهم و في نفس اليوم بل نفس الساعة تقريبا و معناه إنهم في نفس عملية القتل و فعل ذلك غير ممكن لأنه كما انت قلت غاب أحدهم ، و التواصل معه سيكون غير ممكن لأن المسافة بين مكان العمل و منزله تزيد عن نصف ساعة خاصة أن الضحية لم تبرح منزلها في الساعات السابقة كما عرفت من الأخبار ، لا أجد أنه من المعقول التوجه لأربع أهداف ثم الإنتقال إلي هدف خامس و ذلك الهدف الخامس في الأصل لم يتواصل مع القاتل، بل وذلك كله في نفس الإطار الزمني الذي يقل عن ساعة ، الأقرب أنه توجه لواحد فقط و أستخدمه ضد الآخرين و هو شئ معقول نوعا ما ، رغم أن الأمر برمته غريب و لا يتقبله عقل و لكن نحن نتبع الأقل غرابة و المتاح لنا حتي نتوصل الي أي شيء نستفيد منه "

فقال لي :

" مدهش، سأخبر نذير بتلك التفاصيل و اطلب منه زيارة لاحدي الضحايا حالا إذا أمكن"

ثم نهض و قال لي :

" لا وقت للطلب ، ستأتي معي "

و سريعاً أنطلقت مع مراد فركبنا مترو الانفاق متوجهين نحو مسرح جريمة المرج حيث يقبع المفتش نذير ، انطلقنا تحت ستار السماء الكاحل المرصع بالنجوم و كلما أقتربنا زاد بداخلي شعور بشع و تزداد برودة أطرافي كأننا غادرنا الي دولة أخري في الغرب حيث الصقيع القارص، و هناك تجمعات من البشر و بعض الشرطي الحاضرين و قد لمحت أحدهم مرتديا معطفه الطويل الرمادي و يتحدث مع أحد زملائه من فريق البحث ، فسألت مراد :

" هل ذلك هو نذير "

فقال :

" نعم هو ، هيا أستعد "

و اقتربنا منه كفاية حتي أشار له مراد فأتي و قال له مراد :

" هذا هو العبقري الذي أخبرتك عنه "

فنظرت الي مراد و قلت في نفسي " لا تبالغ يا أحمق " ، التفتت الي نذير فاؤما برأسه تجاه الجثمان الملفوف أمامنا و قال لي :

" لديك دقيقة واحدة و هذا اقصي ما يمكنني تقديمه "

فوافقت و أنطلقت اتفحص ذلك الجثمان سريعاً و سجلت باقصي ما يمكنني ملاحظات قصيرة أتفحصها بمهل عندما أعود و عندما نهضت من جثوة ركبتاي لمحت ظل خاطف لثانيتين يقف وسط تجمعات السكان و لكن سريعاً اختفي بمجرد عبور أحدهم أمامه فوقفت أتفحص الموجودين بعيني و قد بدا علي القلق فسألني مراد :

" إلام تنظر ؟ "

فقلت له

" لا، لاشيء ، فقط شردت في ذلك الأمر "

و أكملت :

" هيا نرحل ، أخذت ما يمكنني أخذه "

فاقترب مني نذير بخطوتين و قال :

" مراد لديه ثقة بك و لكن انا لا شخصيا "

فإبتسم و قال :

" بالطبع لست شاكا فيك أيضاً "

فهززت له رأسي شاكرا و رحب بنا و أخبرنا إنه سيكون موجود في الفترة المقبلة ، كان شاباً في بداية الثلاثينيات ، طويلاً قمحي البشرة ، شعره قصير شديد السواد و عيناه البنيتين كعيون القطط تتحلي بحواجب سميكة معقدة و يزين ذلك الوجه الصارم ابتسامة طفيفة تدل علي الكبرياء و الثقة ، علي رغم صغر سنه و لكن تبدو عليا علامات النضج و الخبرة ، أخبرني مراد أن نذير كان أحد طلاب أبيه الاستاذ فرناس ، معلم مادة الجغرافيا بمدرسة الكرمل الثانوية الخاصة، و علاقة نذير بابيه مازلت قوية و بالتالي فهو

يعتبرني كاخاه الأصغر، فهززت رأسي و أبتسمت و مازلت شاردا في ذلك الخيال العابر الذي لمحته منذ قليل.

عدت الي منزلي برفقة مراد و دلفت الي غرفتي جالسا علي مكتبي و أشعلت مصباحي الاصفر و وجهته نحو أوراقي و بدأت أحلل البيانات التي جمعتها

- تعابير الضحية باردة و لا تدل علي أي خوف أو تألم
- الضحية بنفس ملابس عمله رغم أنه من المفترض أنه قد عاد الي منزله منذ ساعتين علي الأقل
- خاتم زواجه يقع في اعلي أصبعه و ذلك يعتبر موضعه غير الأصلي

تعابير الضحية تلك تدل أنه كان فاقد الإدراك قبل وفاته و ملابس عمله تلك تعتبر دليلاً ملموساً و أيضاً عرفت من مراد أنه تواصل مع أحد أفراد أهل الضحية و قد أقروا بغرابة تصرفاته قبيل انتحاره فقد كانت الضحية المسكينة شبه مبرمجة و لا يتصرف بشكل طبيعي، الوسيلة التي يستخدمها القاتل هي نوع من التنويم المغناطيسي أو ما شابه و لكن كيف ؟ مازلت لا اعلم تحديداً..

و أيضاً ذلك الخاتم قد تحرك من مكانه ، لا أستطيع أن أتخيل تحرك ذلك الخاتم الا عن طريق احتكاك مباشر به خاصة أنني لاحظت ضيق مقاسه في تلك الزيارة السريعة فقد تم تحريكه عمدا فطلبت من مراد أن يسأل نذير إذا هناك أي بصمات مكان إصبع الضحية و هل ظهرت اي ضحية باكسسوارات تحركت من مكانها كان الرد بالصدمة هو لا في الأولي و نعم في السؤال الثاني و هو ما زاد حيرة المباحث كما أدلي مراد، فجن جنوني انا الآخر ، كيف

تحرك إذا بمفرده و لماذا ؟ اخذت في التفكير حتي أفترضت نظرية جديدة :

- ان القاتل لديه مغناطيسية مرتفعة و تلك الظاهرة البشرية قليلة جدا و اذا صح تخميني فسنكون إقتربنا بشكل مذهل من القاتل

فحتي الآن افتراضيتنا أنه قاتل ليلي يستهدف المذنبين و لديه مغناطيسية مرتفعة و هو ما يسفر تحرك أغراض الضحايا المعدنية و يستخدم التنويم المغناطيسي أو ما شابه في قتل ضحاياه و دليل ذلك عدم وجود أي دليل مادي في جثة الضحية ، و كون الأغراض المعدنية تحركت فإن القاتل كان قريب جدا من الضحية لأن المجال المغناطيسي لا يزيد سوي سنتيمترات ، فيبدو أن وسيلة تنويم الضحايا ليست ممكنة علي المدي البعيد فمقتل الضحية الخامسة يظل للغزا ، ربما أختلط بالضحية الخامسة ثم أحدي الضحايا الأولي و بطريقة ما أستطاع الموازنة بين موعد مقتل الخمسة و تلك كانت أداة تضليلية لكي أظن أن طريقة تنفيذ تلك الجرائم ممكنة عن بعد.

أعتقد أن فترة برمجة الضحية علي الانتحار قد تزيد عن مجرد بضع دقائق أو حتي ساعات و معرفة ذلك ضرورة و لكن يمكنني تأجيل ذلك لاحقاً ، المهم الآن هو تحديد وسيلة قتل الضحايا ، اللمس مستبعد لعدم وجود بصمات ، التقاء العيون مستبعد أيضاً لأن التواصل بالعيون لن يتطلب إقتراب القاتل بتلك الدرجة.. نعم يستخدم الصوت ، فلكي يستهدف الضحية يجب أن يكون ذاك الصوت موجه له فقط و هذا يعني أن محادثة في نطاق مكاني ضيق هي شرط من الشروط ، و مخيلتي تدفعني أن اعتقد أنه نوع

من الهمس أو الترانيم و هو ممكن في ظل وجود ذلك الحيز الضيق بين القاتل و الضحية.

و لكن يظل السؤال القائم هو لماذا تلك الضحية الأخيرة لم تبدأ ملابسها علي خلاف معظم الضحايا الآخرين ؟ ، أعتقد أن هناك غرض، فقاتل بتلك البراعة و الدهاء لن يخطأ خطأ ساذج مثل ذاك ، أعتقد أنه يقوم بإضافة بعض العشوائية في نظام قتله للضحايا لهدف تضليلي كما ذكرت منذ قليل، و بذلك يشتت أيادينا عن الاقتراب منه..

في منتصف تفكيري ذلك و اثناء جلوسي علي مكتبي ، يقطع ذلك الخط من التفكير صوت مفاجئ ينبعث من الصالون فلم أهتم كثيرا لعله صوت من الشارع أو أحد الجيران و أختلط علي الأمر، و لكن لم يطول الأمر إلي أن تكرر ذلك الصوت مجددا ، صوت حاد لنقرات متصلة تختفي فجأة لكي تتكرر من جديد ، فنهضت و سرت نحو باب غرفتي المطل علي الصالون و فجأة توقف صوت النقرات بمجرد إمساكي بمقبض الباب و القلق يراودني بعد أن شبه تيقنت أن مصدر ذلك الصوت هو الصالون ، فتحت الباب ببطء فيستقبلني ذلك الظلام الذي ملأ المكان فيتخلله إضاءة خفيفة من غرفتي ، سرت علي أثرها أتخبط في الاثاث و الأغراض حتي وصلت إلي مفتاتيح الاضواء و أشعلت أحد المصابيح ، فوجدت كل شيء في مكانه و لا أثر لذلك الصوت فقلت لنفسي :

" أكيد صوت من خارج الشقة و إرهاقي أثر علي استيعابي و إدراكي "

فعدت أدراجي مجددا و هززت رأسي و نفخت نفخة ضيق و سحبت كرسيي لأكمل عليه تفكيري و تحليلي لما يجري من تلك الظواهر و لكن لم يلبث الأمر إلا دقائق و عاد صور النقر المزعج و لكن تلك المرة الصوت من خلفي مباشرة .. تجمدت رقبتي و علت دقات قلبي و تلبدت أصابعي التي كانت تتلاعب بالقلم و ببطء شديد استدرت برقبتي فلم أجد أي شيء فوقفت بساقاي ترتعش و أخذت اتفحص الغرفة و الرعب يعتلي جفوني و يغطي علي عيناي و القلق وثب في ضلوعي فبالكاد إستطعت الحراك فلم أجد أي شيء ، دقائق من الإنتظار و لا شيء حتي قررت أن أعود للكتابة مجددا و لا أخضع لتلك الهواجس فمدت يدي أتحسس مقعدي و مازلت رقبتي مشلولة في اتجاه ذلك الصوت فلم أجده ، فالتفتت تجاه الكرسي ، أين ذهب ؟؟ و عندما قررت أن أنظر تجاه الصوت مرة أخري وجدت ذاك الشيء يقف أمامي ، نفس الظل الذي لمحته البارحة في موقع ضحية المرج الأخير ، يقف أمامي و وجهه بلا عيون أو اي ملامح و طوله يتساوي مع طولي و تنبعث من جسده رائحة نفاذة تشبه تلك الخاصة بعقاقير المستشفيات ، و فجأة تكون له فم إنفرج الي أقصاه و أخذ يصرخ صراخ حاد كاد يخترق اذناي و فجأة اختفي، اصطكت أسناني و ارتجفت مفاصلي و تنفست الصعداء فذلك الشئ تخيلته يقتلني أو يلحق بي ضرر مرعب مثل ما أراه في الأفلام ، التفتت الي المقعد فوجدت كل شيء في مكانه ، فأمسكت رأسي من الهلع ، ما بي ؟؟ هل فقدت عقلي ام ماذا!؟، ما سبب تلك الخيالات ؟ و لكن رأيت ما غير وجهة نظري و منظوري تماماً ، وجدت قلمي علي الأرض و ما شد انتباهي أن معظمه مكون من المعدن و متأكد أنه لم يقع من تلقاء نفسه ، بل صعب جدا لانه ثقيل الوزن مقارنة بالافلام العادية و ليست المرة الأولي التي اتركه فيها علي الطاولة ، بل اتجاه ذلك القلم يشير إلي

اتجاه ذلك الظل ، لا أري انها صدفة ، لا توجد صدفة بتلك الدقة ، بل مازلت أذني تؤلمني ، لا أعتقد أن هذا كان مجرد وهم ، أتذكر أنني رأيت شيء يشبه ذاك الكيان عند وفاة أمي .

لن أكذب ، بقيت بقية اليوم في هلع فقمت بتشغيل المذياع علي قنوات الاذاعة القرآنية و أخذت في ترتيل بعض الآيات و قضيت ذاك الليل المرعب علي فراشي بعد أن أحكمت غلق النوافذ و الأبواب ظنا مني أن ذلك سيزيد من شعوري بالأمان و الغريب أن لا أحد من الجيران لاحظ اي شيء و قوة ذلك الصوت كفيلة لتصل إلي نهاية الشارع ، لذا انا فقط من شعر بوجوده، الأكثر غرابة أن ذلك الشيء أثر علي القلم المعدني لذا لا بد أنه حقيقي بطريقة أو بأخرى و نفس الوقت لا أثر لصوته علي اي شخص ، فقط انا!.

ظللت جالسا علي فراشي في الثلث الاخير من الليل أترقب أي صوت هنا او هناك مثل المجنون و مع أقل حركة خفيفة أنتفض ألتفت حولي في هلع و ظل الحال راكدا كئيبا يمتلء بالهدوء الا صوت دقات قلبي العته و خلال ساعات من السهر و اليقظة يتمكن مني النوم حتي أسيتقظت فجأة في هلع ، نعم كان الصباح و شعاع الشمس الذهبي قد أنعكس من مرآتي ليغطي وجهي المرهق الغارق في نومته ، فنهضت و ذاكرتي تسترجع الليلة الماضية كأنها حلم باهت المعالم و التفاصيل و من كثرة تشوش تلك الأحداث في عقلي كدت أن أظن أنها غير حقيقية و أن كل ذلك كان من وحي أوهامي، اتذكر أيضا أنني حلمت بأمي و هي تتشاجر مع أبي ، حلم غير واضح ملء بالتقطعات و أنتهي الحلم علي شيء لا أتذكره ، أكثر شيء أتذكره هو والدي و هو يقول

" أنتي السبب ! أنتي السبب ! "

ذهبت الي المطبخ بخطي مرهقة لكي أعد كوبا من القهوة و خرجت منه الي اريكتي و قد قررت أن اتصل بسيرين بعد أن انشغلت الفترة السابقة بتلك الأزمات فلم أحدثها سوي مرتين علي مدار الأسابيع السابقة و هي أيضا في دراستها الجامعية بمحافظة بنها ، سيرين هي صديقة سنتين تعرفت عليها في أحدي مواقع التواصل الإجتماعي ، فكانت تدير صفحة تعرض عليها بعض من الشعر و الكتابات و أعجبت بعملها و تابعتها فترة كبيرة حتي شاءت الأقدار أن نتحدث و رويداً صرنا أصدقاء مقربين فتكون هي ثاني شخص بعد مراد أرتاح له و ترتاح لي ، علي الرغم أن تقابلتنا قلت و انحسرت الي مرات معدودة و لكن مازال الوصال قوي الروابط..

ردت علي سريعاً و بدأت حديثها و قالت :

" فارس! ، كيف حالك ، قلقت عليك بسبب ما يحدث تلك الأيام "

فقلت لها :

" انا بخير و انت ؟ ، في الواقع انا احقق في الأمر برفقة مراد."

فقالت لي :

" حقا!؟ ، مباحث الشرطة في حيرة و الموضوع صار مقلق جدا "

فقلت لها :

" نعم و علي الله نتوكل ، فقط اتصلت لكي اطمئن عليكي "

فقالت :

" نعم أقدر ذلك ، وانت ايضا أعتني بنفسك "

فقلت لها :

" سأحاول .. أشعر بشعور بشع يزداد مع مرور الوقت "

فقالت لي :

" لا طبعاً ، مجرد مخاوف من شيطان ، تقرب من الله و لا تقلق ، انت فقط مضغوط بسبب الأزمة الحالية "

فقلت لها :

" نعم .. ممكن ، أعتقد سأزورك قريباً "

فقالت لي :

" سأكون في انتظارك "

و انتهت المكالمة بتلك العبارات الدافئة ، احتجت أن أسمع صوتها و اطمئن عليها خاصة في تلك الفترة الجلفة الفارغة من لمحات السعادة، و بعدها أنطلقت الي صديق قديم .. الأستاذ قبيل ، أريد أن اعرف بعض الاشياء بخصوص أبي ، حلم غريب في توقيت أغرب و جمهرة من التساؤلات تتكدس علي صدري و أريد أن أقطع شكوكي بسيف اليقين.

الأستاذ قبيل يسكن حالياً في نفس الحي و لكن في شقة مختلفة فلم يستغرق وصولي الا بضع دقائق ، صعدت عمارته الجديدة لأول مرة فلم أزوره سوي مرة واحدة في منزله السابق ، علمت من مراد أنه يسكن في الدور الرابع و قد تعرفت علي الشقة من تلك

الافتة المعدنية التي تحمل أسمه في منتصف ذاك الباب من الخشب المتهرئ ، نقرت ففتح لي الباب و بوسع ذراعيه احضتنني و رحب بي ترحيباً حارا ، من ثم أخذني الي غرفته و كانت غرفة شديدة الهدوء تمتلء بصور قديمة تبدو لوالديه و أجداده، و اتخذنا مقعدين خشبيين تحت اضاءات غرفته المصفرة فسألني عن حالي و سألته عن حاله حتي بدأ الحديث الرئيسي ، فنظرت في عيناه لثانية و تلعثم لساني من التردد فأنطلقت بعدها و قلت :

" أستاذ قبيل ، هل لي ببعض الأسئلة ؟ بخصوص والدي الراحل "

فلاحظت توتره الخفيف و عيناه المتسائلتين ، فصمت لهنيهة و رد :

" نعم بالطبع ، تفضل "

قلت له :

" هل كانت هناك اي مشاكل بين أمي و أبي "

فخلع نظارته و أستعدل جلسته و قال :

" ماذا أوحي لك بتلك الأفكار ؟ "

فقلت له :

" حلمت بحلم غريب عنه و هو يقول لأمي أنها السبب ، فلا اعلم سبب ماذا ، بل لا اعلم لو تلك الهواجس لها صلة بالواقع "

فقال لي :

" هل حلمت بذلك حقا ؟ "

فقلت له :

" نعم ، بل رأيت شخص ثالث يتدخل بينهم و اعتقد أنه انت "

فظهرت الحيرة علي معالمه و تاهت عيناه للحظة فقال لي :

" لا أعتقد أنك تريد الحقيقة ، بل لا فائدة منها "

فقلت له :

" حقيقة ؟ ، حقيقة ماذا ؟؟ "

فقال لي :

" ذكريات غير مهمة لن تجلب سوي الالم يا فارس "

فقلت له :

" انا بحاجة إلي اجابات .. لأن احلامي تلك تقودني الي الجنون "

فقال لي :

" ما أحلامك تلك ؟ "

فقلت له :

" لا وقت لدي ، أرجوك .. لو بحوزتك اي شيء أخبرني "

فأخذ نفسا من سيجاره و بادر قائلا :

" في الواقع ، والدتك تميمة ضغطت علي والدك نفسياً "

و أكمل :

" رغم أنه أحبها و رغم أنها أحبته ، لكن أعمتها الغيرة و سيطرت علي ردود أفعالها اوهامها و تصوراتها الشخصية الخاطئة "

انتابتني الدهشة من عباراته تلك فظللت صامتا و أتابع حديثه بايماءات رأسي اليأسة ، فأكمل :

" والدك أشتكي لي كثيراً و حاولت التخفيف عنه و لكن كلماتي عجزت عن سد تلك الثغرات في قلبه "

و أكمل :

" فكانت والدتك تتهمه بالخيانة علي أقل الأسباب حتي أنها رفضت الكلام معه لأسابيع و افتلعت مشاكل فارغة لم تجلب سوي وجع القلب "

فقلت له :

" حقا ؟ أمي فعلت هذا ؟ ، لا أصدق .. لا أقول انك كاذب و لكن .. "

فقال :

" امك لم تكن شخصية سيئة و لكن الأخطاء واردة "

و أكمل

" فتحطمت نفسية والدك و أختفي بريقه و لاحظت شروده كثيراً قبل وفاته بعدة أيام "

و عندما كنا معا نعبر الطريق لكي نصل الي الجهة الأخري ، اتصلت به والدتك ، فتشاجرا معا و في تلك الثواني القليلة التي شرد فيها عبرت من خلاله سيارة نقل أردته قتيلاً "

فبرقت عيناي و انتفضت واقفاً :

" معني كلامك أن أمي هي سبب مقتل والدي ؟؟ "

فقال لي

" نعم تماماً ، أخبرتك أن معرفتك لذلك غير مفيدة و لن تجلب سوي الحزن و الضيق "

فنظر إليه بعيناي التائهتين فقد شردت و بدأت اجمع التفاصيل و أشبك الروابط ببعضها من ثم تحركت ببطء نحو باب الغرفة و قلت له :

" أعتذر منك .. يجب أن أرحل حالا "

و توجهت الي باب الشقة في هرولة و أغلقت الباب خلفي و ذاك النزاع في عواطفي كاد يسحب بأكتافي الي الأرض من ثقله و من السلالم المظلمة الي الشارع المزدحم و أقدامي المسرعة تقودني الي لا شيء و لكنها ترضي دقات قلبي العنيفة كسجين خلف القضبان و القبضان صدري ، و سريعاً وجدت أقدامي تقودني الي منزل سيرين ، متي و كيف وصلت ؟ لم أدرك حتي طيلة الطريق أنني اقترب من شارعها ، فتوجهت الي شقتها فهي تعيش مع أمها القعيدة و اخوها ذو الثلاثة عشر عامًا ، فتح لي الباب اخوها الأصغر و قالي لي :

" فارس ؟ تفضل "

فدلفت و جلست علي الأريكة و قد أحيطت الصالة بجدران مصبغة بدهانات صفراء مرصعة باللوحات القرآنية و الاضاءات قوية تزيد من لمعة الاثاث و السجاد ناعم أحمر اللون كحمرة الشفق ، رحبت بي والدتها و كانت سيدة شديدة العجز و لكن وجهه السمح و إبتسامتهم الفارغة من الأسنان تريح القلب ، سألتني ما بي فقد غط

وجهي الضيق أثر الاخبار الحديثة حتي دلفت سيرين مرتدية عبائتها السمراء و تعلوها إبتسامة رقيقة و عيناها الضيقتين الداكنتين كسواد الليل قد إلتمعت برؤيتي و لكن سريعاً انحالت و اختفي ذاك الجمال فأردفت :

" ما بك ؟ يبدو عليك الهلع ، هل انت بخير ؟ "

فرديت :

" نعم .. فقط حالتي النفسية أهلكت و إرهاقي فاق الحد "

فقالت لي :

" هلا تحكي كل شيء ؟ لماذا أقحمت نفسك في كل تلك الأمور يا فارس! "

فنظرت إليها نظرة ضعف و نظرت في الأرض و هززت رأسي في نكبة و قلت :

" هل لي بكلمة علي إنفراد يا سيرين "

و أكملت

" يمكننا التحدث أسفل منزلك لدقيقة لو أمكن "

فردت والدتها :

" نعم أكيد ، و لكن أهنالك شيء يا أبني ؟ "

فقلت لها :

" لا يا أمي ، لا شئ شكراً علي سؤالك ، استأذن منك "

و نزلت أدراجي مع سيرين، ثم وقفنا أمام مدخل عمارتها و هي تسالني في قلق عاقدة حاجبيها:

" ماذا هناك يا فارس؟؟ "

فرفعت رأسي الموطئة تجاه الأرض و قلت لها :

" تعرفنا علي بعضنا البعض منذ سنتين .. سنتين رائعتين في الواقع "

فقالت :

" بالتأكيد يا فارس "

فنفخت في ضيق و الدموع في عيناي :

" ربما تكون آخر سنتين ، انا قدت نفسي الي الجحيم يا سيرين ، أنا في أشد الحاجة لكي ، انا أكاد انهار من تلك النكبات .. بل بالفعل أنهرت "

فردت في قلق :

" اخر سنتين ماذا ؟ توقف عن اخافتي ارجوك ، لا شيء انا هنا من اجلك دائما، أليس هذا ما يفعله الأصدقاء، انت فقط مضغوط و تحتاج إلي بعض الراحة"

فقلت لها :

" أصدقاء ؟ "

فقالت لي :

" بل أعتبرك اخي الذي لم تلده أمي "

فنظرت إليها في صمت و ابتسمت إبتسامة مكسورة و أستاذنت منها بالرحيل ، و أنطلقت في شوارع الأميرية و الظلام يغطي قلبي الذي لم يجد طريقه الي الخلاص منذ أن ولدت و فجأة تجمدت قدماي... تلك الخيالات المقطعة حطمت كل ذرة شجاعة تبقت في بعد كل ذلك ، ساعة حائط تشير الي التاسعة و نصف ، صوت مراد ، صريخ حاد ، عزف .. الساعة علي ذلك الحائط مجدداً و أخذت الصور تنعاد في حلقات حتي رأيت في نهايته وجه مراد الملطخ بالدماء و فجأة اندمس ذاك الظلام و عاد الضوء و انا في منتصف تلك الشوارع الضوضائية و نظرت في ساعتي في رعب ، أنها التاسعة .. و أنطلقت .. ثلاثين دقيقة فقط ما تبقي ..

الفصل الرابع

« دقات الساعة »

مراد

أوصلت فارس الي منزله من ثم انطلقت الي منزلي لكي أكمل بحث و تحليل بمساعدة فارس ، في تمام الساعة التاسعة و خمس دقائق، بعد ساعة من إيصال فارس ، و في غرفتي المطلة علي الطريق العام فتمتلء بأصوات السيارات و العامة ، كنت عائما في

دوامة تفكيري حتي قررت أن أنهض و أعد شيئا لاتناوله فلم أكل شيئاً منذ الصباح و كثرة التفكير قد أحرقت معظم طاقتي ، فنهضت الي مطبخي و أحضرت بعضا من الجبن و الخبز فلم امتلك صبرا لكي أجهز أكلة ما تستغرق نصف ساعة أو أكثر و عدت الي مكتبي مرة أخري ، الآن الساعة صارت التاسعة و خمس و عشرون دقيقة و مازلت أبحث و لا جديد..

نهضت إلي الصالون حيث تركت هاتفي فقد قررت أن اتصل بفارس لعله وجد اي شيء فوجدت ٥ مكالمات فائته منه ، تبا!، لا أتذكر أنني قد أغلقت صوت الاشعارات ، فاتصلت عليه و سريعاً رد و هو ينهج و أنطلق في هلع :

" مراد !! أخرج من شقتك بسرعة ! حالا! "

غطني القلق و الاستغراب فأردفت سريعاً :

" لماذا ؟؟ ما المشكلة يا فارس ؟؟؟ "

فرد علي :

" أخرج ! أخرج لا وقت التفسير !! "

فأخبرته بموافقتي و سريعاً أنطلقت الي باب الشقة رغم أنني لا اعلم ماذا هناك و لكن الباب موصد و لا يفتح ، محاولة وراء الأخري و لا نتيجة ؟ بدأت أترعب ، اتصال فارس و ذاك الباب الموصد غير مريحين البتة ، فاتصلت علي فارس و قلت له أن الباب موصد فأخذ يصرخ و فقد عقله و أخذ يقول :

" حطم ذلك الباب! ، ارجوك حطمه!! "

فحاولت بقوة بكتفي و لكن لا نتيجة ، و أثناء محاولاتي تلك ظهر صوت نقرات من الغرفة و أخذ الصوت يزداد تدريجياً كأنه يقترب مني و لكن لا أحد و لا تفسير و الرعب وصل بأطرافي الي الرعشة و لا أعلم ماذا يحدث ، الأمر أشبه بفيلم رعب لأحدي الشقق المسكونة و فجأة سمعت صوت فارس علي السلالم و هو يهرول وينادیني بإسمي و فجأة أخذ يضرب الباب بكل ما أوتي من قوة و ينادي الجيران في رعب لكي يكسرو باب الشقة و بدأ صوت النقر خلفي فجأة بعد ذلك الصمت الذي أستمر لثواني و يبدو أن فارس سمعه أيضاً فأخذ في الصراخ حد بدأت اسمع صوت الجيران بالقرب منه و هو يقول أفتحوا الباب هناك حريق بالداخل و فجأة ظهرت هيئة غريبة لظل مبهم الوجه و أمسكني من رقبتي فرفعني في الهواء و تحولت يده اليسري الي أداة جراحية تشبه المشرط و قبل أن تطير رقبتي ، تحطم الباب من خلفي و معه تلاشي الظل و سقطت علي الارض و انا ألهس علي أثر ألم الاختناق و فارس دخل و معه بعض الجيران فجثو علي ركبته ة أخذ يبكي بكاءا مختلط بالفرح و انا مازلت في حيرة و سعادة و خوف ، اختلطت مشاعري حتي نهضت و استعدلت جلستي و نظرت حولي في رعب اتفحص المكان بحثاً عن ذلك الخيال فقال لي فارس :

" إهدأ .. انا أعلم كل شيء.. لقد ذهب "

فنظرت إليه في دهشة ، كيف عرف ؟ ، لم أرد فأنطلق أحد الجيران يقول إنه لا يوجد حريق لماذا إذا تلك الجلبة و اعتذرنا منهم فرحلوا مزمجرين و أصوات همهتهم بالانزعاج أخذ يجول حتي رحل كلا منهم الي مشغله ، فنظرت الي فارس مرة أخرى و

قد اتسعت حدقة عيناي و سألته و لساني يتلاعب علي شفتي من التوتر :

" كيف عرفت .. و ما ذلك الشيء ؟؟! "

فقال لي :

" لا اعرف .. في الواقع لا أعرف .. ليست المرة الأولى التي أراه فيها و ليست المرة الأولى التي اتنبأ بها بخطر جسيم مثل هذا "

فنهض واقفاً و أمسك رأسه و قال :

" لا أريد أن أري تلك الهواجس مرة أخرى ، لا اريد.. "

من ثم أخبرني أنه سيمكث الليلة معي لأنه مرهق و لا يستطيع العودة بتلك الحالة بالإضافة أن وجودنا معا سيكون أقل خطراً فقال:

" إقترابي من ذلك الشيء ربما جعله يختفي .. ربما لأنه ظهر لي منذ أيام و لم يقربني بأذي "

فقلت له :

" ذلك الظل ؟ "

فقال :

" نعم هو .. بل هو ربما قاتل الأميرية.. هو سبب كل شيء "

فسألته في حيرة و مازال قلبي يرتعد علي أثر اللحظات السابقة :

" و لكن كيف ؟ ألم يكن من المؤكد أنه إنسان !!؟ ، كيف اصبح فجأة شيطان أو ما شابه "

فقال لي :

" صدقا لا اعلم و لكنه ظهر في أحدي مسرح مقتل الضحايا ، ظهر عند وفاة أمي ، و ظهر لكي يؤذيك بل و أيضاً جسده يجذب المعادن كم حدث مع ضحية المرج و أعلم طوله فهو يقترب من طولي .. اقصر بسنتيمرين تقريبًا و أريد تجربة شئ ما يؤكد لي كل شيء"

فسألته :

" ماذا تريد أن تجرب ؟ "

قال :

" أنه شيء مرفوض و خيالي بالمرة و لكن يستحق المحاولة "

فسألته :

" أخبرني و علي الله الأمور "

فقال :

" سننشر خبر مزيف و أن سبب تلك الحوادث هو كيان شرير كنوع من السحر الأسود و خلطات برادة الحديد مع الملح في أرجاء المكان ستبعده عنك ! "

لم أعلم غاية ذلك الطلب الغريب فسألته :

" و لكن لماذا ؟ "

فقال لي :

" لن أبوح به ، ربما بطريقة ما هو يعلم ما يدور بيننا "

فزاد هلعي و أخذت انظر من حولي في ترقب ظنا مني أنه موجود في الوقت الراهن ، فنظر لي فارس و قال :

" لا نحن لسنا في خطر ، لو الخطر قريب مني أشعر به قبلها بفترة "

فهززت رأسي و قد انطفئت نيران هلعي قليلاً و سألته :

" و لكن ماذا سيقنع الناس أن تلك الطريقة أو كلامنا فعال بشكل عام ؟ "

فرد و قال :

" لو انت مريض لا قدر الله و لا دواء متاح و فجأة اتي أحدهم و اعطاك وصفة طبية ، هل ستجرب ؟ "

فقلت له :

" نعم .. لأن ذلك الخيار الوحيد "

فقال لي :

" نعم تماماً و نفس الأمر هنا ، في ظل ذاك السيل من الهلع ، لا مجال للتشكيك ، الجميع سيجرب فإنه لن يخسر شئ "

فأومأت برأسي و رفعت حاجباي قائلا :

" نعم معك حق و ماذا ستفعل بعدها ؟ "

فقال لي :

" هذا دور نذير إن أمكن ، أريده أن يهيئ لي رؤية موضع قتل أقرب ضحية بعد أن ننشر الخبر "

فقال لي :

" سأحاول و لكن ما ضمان نجاح تلك الخطة ؟ "

فرد :

" ٩٠٪ ، أن صحت تخيلاتي و أفتراضياتي للموقف "

فقلت له :

" نسبة عالية بشكل كافي "

فأومأ برأسه و نظر في الأرض و صمت للحظة ، فبادر و قال

" لا استطيع ان أخرجها من رأسي "

فسألته :

" من تقصد ؟ "

فقلت له :

" سيرين ، خاصة في تلك الفترة المعلونة "

فقلت له :

" لا تقلق ، أشعر أنها ستكون بخير خاصة أنها ليست مذنبة "

فنظر إلي بطرف عيني و قال :

" و لم تكن انت أيضاً ، يبدو أنه يستهدف غير المذنبين إذا كان الأمر في صالحه "

فسألته :

" و ما صالحه أو فائدته من قتلي "

فنفخ من الضيق و قال :

" لا أعلم ، هناك الكثير لا أعلمه.. "

اكتنفت ليلتنا تلك بهدوء قارص و برودة حادة ، أشعلت اضاءات الشقة كلها من الرعب و أشعلت المذياع علي قنوات القرآن الكريم و مكثنا في غرفتي نتكلم و نتشاور حتي اخر الليل و قد أزيل عننا ستار الهلع ذاك و تبدل بقلق و خوف أقل كافي ليخف ذاك التعتيم في وجوهنا ، فرأيته يذكر سيرين أكثر من مرة و يطيل في التفاصيل و يبتسم حتي في ظل ذلك الرعب و لكن سريعاً تنطفئ ابتسامته تلك كأنه تذكر شئ ما في كل مرة حتي تطرق الي الفضول و أنطلقت بسؤالي الجرئ :

" هل في قلبك حب لها ؟ "

فأحمر وجهه و تلعثم قائلا

" لا ، و لا وقت أو ظروف مناسبة لموضوع مثل ذلك "

فقلت له :

" فقط أجب و لا تكتم ما بداخلك ، هذا سيؤلمك أكثر .. لا شيء مفيد من ذلك "

فقال :

" نعم يا مراد ، أحبها فوق وصف الكلمات "

فقلت له :

" لا عيب في الحب و ماذا عنها ؟ "

فقال لي و عيناه قد انكسرت :

" تعتبرني مثل اخوها .. كما قالت "

فحاولت التخفيف عنه و قلت :

" كلام الإناث لا يعبر عن ما بداخلها دائما "

و أكملت :

" لست خبيرا و لكن مشاهدة الأفلام و الروايات مفيد "

فقال لي :

" انها قصص خيالية ، واقعنا مؤلم و اكثر تعقيداً مما نظن "

و أكمل قائلا:

" علينا أن نتقبل في بعض الأحيان أن الواقع هو عكس إرادتنا و تصوراتنا الشخصية ، نتقبل أن أحلامنا و طموحاتنا قد تكون مجرد احلام و خيالات في النهاية ، علينا أن نتقبل أن الخسارة و الألم جزء لا يتجزأ من الخليقة .. و لكن انا .. انا فقط لا أستطيع "

فقلت له :

" و لكن تظل هناك فرصة مع ذلك ، بعض من عواطفنا لا تحملها الكلمات بل حتي الأفعال قد تكن غير كافية لإيصال ما بداخنا ، النفس البشرية هي حرب بحد ذاتها و المنتصر و الخاسر هو نحن و لا سوانا "

و أكملت :

" لا تحكم علي أحد بما قاله لسانه أو بدر منه ، فحتي عيوننا غير قادرة علي رؤية الحقيقة ، لا آذاننا قادرة علي سماع الصواب ، لا عقولنا قادرة علي استيعاب الواقع في جميع الحالات ، انا مؤمن أن

البعض سيموت و هو قد تم ظلمه و اتهامه بصفات لم تكن في جوهره أو جزء منه ، بل دفعته الظروف لذلك "

فنظر لي و قال :

" أري أنه من الأفضل أن نتوجه لخطوتنا التالية في أمر ذلك الشيء "

فانتبهت بعد نسيت للحظة و قلت :

" نعم.. سأنشر الخبر حالا علي صفحتي علي السوشيال ميديا ، الأخبار مثل تلك تنتشر كالبرق و تصبح كنار علي علم "

فقال لي :

" سأفعل ذلك أيضا و سأحاول نشر الأمر بين معارفي و الجيران "

و أنتهي حديثنا ذلك اليوم في تمام الساعة الرابعة فجراً بعد سهرة طويلة من مشاعر الألم و الخوف ، سهرة طويلة من الرعب و الترقب و الإنتظار لكي تغلبنا جفوننا المرهقة و نغط في نوم عميق ، فنستيقظ اليوم التالي في تمام الساعة الحادية عشر علي أثر إشراقة الصباح المتوهجة و ينطلق كلا منا لتنفيذ كلامه رغم أنني حتي الآن لا اعلم الهدف وراء ذلك الطلب الغريب..

انطلقت علي صفحتي الخاصة و نشرت الإشاعة و اتتني تفاعلات و مشاركات كثيرة من قلوب خاشية تكتنف في حوائطها الأربعة و هي تظن أنها الفريسة القادمة لذلك المفترس المجهول و سريعاً لاحظت الصفحات الأخري تنشر الخبر و الأمر أصبح كنيران

تشبثت بغابة كاملة بعد أن كانت أولي الشجرات من عندي و فارس في الناحية الأخري قد نجح في نشر الخبر و خلال يومين كان الأمر قد أنتشر..

فأتاني فارس و قال :

" مع أقرب ضحية إلينا ، سنحتاج إذن نذير ، اللحظة الفاصلة أقتربت "

فأغمرتني الحماسة و التشويق المختلط بالقلق و الحيرة و قلت :

" نعم سأفعل، أتمني أن ينجح ما تخطط إليه "

فشرد و قال :

" أتمني .. "

و خلال ساعتين أتانا أول خبر لضحية ماتت مشنوقة في حي الزاوية الحمراء و أنطلقت مع فارس نشق الريح و نعادي الزمن و سريعاً وصلنا مسرح الجريمة قبل نذير ! ، كنا متأهبين منتظرين تلك الإشارة و سريعاً آتي نذير في سيارته السمراء و خرج مسرعاً و نظر إلي فارس بطرف عينه و قال :

" هيا سريعا "

فدلف فارس وراءه الي غرفة الضحية المكسوة ببرادة الحديد و الملح و برقت عيناه و أنطلق علي ركبته لم يهتم حتي الي جثمان الضحية الراقد أمامه ، فلمحت برادة الحديد قد تفرغت في شكل

طابع قدم ؟ نعم فهمت الآن! ، أراد أن يعلم حجم قدم القاتل فعادة حجم القدم و طول الشخص في علاقة طردية و أراد فارس أن يقدر طول ذلك القاتل إذا تطابق أو أقترب بشكل كافي من طول ذلك الظل ، فبرادة الحديد إلتصقت بقدم ذلك الشيء فتركت أثر فارغ .فنهض و نظر لي و قال :

" نعم كما ظننت "

ثم نظر إلي البرادة علي النوافذ و علي الأبواب و وجدها كما هي ، فعلمت ما توصل إليه ، القاتل لم يدخل من باب أو نافذة أو غيره بل ظهر فجأة في نقطة ما أمام الضحية و هو ما يؤكد أنه أخطأ في تقدير أن الفاعل كان إنسان منذ البداية

فنظر إليه نذير في تعجب فقال له فارس :

" أريد التأكد من شيء و سأعلمك فوراً "

فهز نذير رأسه و أذنا منه بالرحيل و في طريق عودتنا قال لي فارس و هو يخطو بخطي سريعة تملؤها العجلة و الهمة :

" بعد بعض من القياسات باستخدام الشريط المتري ، مقاس قدم القاتل تتراوح بين ٤٠.٥ الي ٤١ ، القاتل طوله تقريباً بين ١٧٢ الي ١٧٤ سم و هو يقترب من ذاك الظل بشكل رهيب ، فطولي هو ١٧٥ سم و ذلك الظل اقصر مني بشكل طفيف جدا بما يقدر بسنتيمتر أو أثنين علي الأكثر، و عرفت ذلك بالنظر و الآن كل الأدلة تشير إليه ! ، أنه هو القاتل ! و الآن ، سننطلق مباشرة إلى خارج المحافظة "

فقلت له :

" خارج المحافظة ؟ لماذا ؟ "

فقال لي :

" سنعرف قريباً "

سريعاً في أحدي اتوبيسات النقل العام انطلقنا الي محافظة القليوبية و ظللنا طول الطريق نتكلم عن ذلك الشيء و فارس يتملكه الحماس رغم تلك المصائب و يبدو أنه بالفعل أقترب بشكل كبير من الحقيقة ، وصلنا الي للمحافظة و مكثنا في أحدي مقاهي قرية شلقان و قال لي :

" اذا دعمتني نظريتي ، فإن القتيل القادم سيكون في المحافظة التي نحن فيها أو علي الأقل بعيد عن محافظة القاهرة "

فضممت حاجبابي في حيرة و قبل أن أتمكن من الاستفسار أتنا خبر مقتل أحد الضحايا بالانتحار في مدينة قليوب المجاورة ! ، فنظرت إليه و قلت له :

" كيف ؟ و ما معني هذا ؟ "

فقال لي :

" لاحظت من البداية أن ذلك الشيء بدأ بالمقربة مني في تنفيذ جرائمه و مع الوقت و تدريجياً استطاع أن يبتعد عن المحيط الذي انا فيه و لكن مرت أيام و مازال لا يستطيع أن يبتعد أكثر"

فقلت له :

" و ما علاقة ذلك الشيء بك ؟ "

فصمت لهنيهة ناظراً في الأرض فقطع حديثنا إتصال سيرين فرد عليها في لهفة فيبدو أنها قلقت عليه و أرادت الاطمئنان ، لا أعتقد أنها تعتبره مجرد صديق كما قالت و سيكشف لنا الوقت الحقيقة علي مصرعيها ، أغلق المكالمة بعد حوالي ١٠ دقائق و هو مبستم ، لاحظت ذلك و لكن لم أعلق فلم يكن الوقت مناسب لتلك الأمور العاطفية و لكن إبتسامتي الخفيفة كانت كافية لكي يلاحظها، فجأة وقف تاركاً قهوته بلا رشفة واحدة فلم يتحرك حتي وجهها عن موضعه و قال :

" و ما علاقتي بكل تلك الأمور ؟ "

و أكمل :

" من الأفضل أن نعود الأن أدراجنا فغرض وجودنا هنا أنتهي "

فوافقته وعدنا الي الأميرية و وصلت الي منزلي فكان في طريق عودتنا فوقف للحظة قبل أن أصعد و نظر إلي السماء و قال :

" أشعر بأن رحلتنا تلك أقتربت من النهاية "

و أكمل :

" ربما لن اكون جزءا من رحلاتنا القادمة "

و انخفض رأسه المبحلقة في السماء و نظر إلي في صمت ، فقلت له :

" توقف عن العبث ، لو انت في خطر ما لكنت ميتا منذ زمن "

و أكملت:

" الفكرة في انا .. "

فقال :

" سأكون دائما هنا لإنقاذك ، أعدك .. "

و أكمل في يأس :

" معظم افتراضاتنا السابقة كانت خاطئة ، إفتراض أنه إنسان كان خطأ من البداية ، و لكن قلة مما وصلنا إليه مازال كافي ، أليس كذلك ؟ "

فهززت رأسي و قلت :

" نعم ، في النهاية كان كافي لنعرف أن الفاعل هو ذلك الشئ "

و أكملت :

" و لكن ما العمل لإيقافه ؟ "

فرفع حاجبيه و قال :

" ليس ادني فكرة ، إيجاد نقطة ضعفه أمر شبه مستحيل "

أنهينا حديثنا هنا ثم ودعته و قضيت الليل بطوله أسترجع كلماته تلك ، ربما لن اكون جزءا من رحلاتنا القادمة .. تكرارا و مراراً .. ربما لن اكون جزءا من رحلاتنا القادمة.. حتي نهضت من وضعية نومي و جلست مسحت وجهي بيدي و صليت ركعتين لله و عدت مرة أخري و ظللت أنازع حتي وقعت أخيراً في بئر النوم الي عصر اليوم التالي ، أسيتقظت في تمام الساعة الرابعة عصراً

و اتصلت بفارس سريعاً فلم يرد ، محاولة أخري و لا رد ، فقلت ربما نائم فكانت البارحة يوماً مرهقاً ..

نهضت و أنطلقت الي منزل نذير في حي المرج في تمام الساعة الخامسة و أخبرته بكل التفاصيل ، فقال لي :

" اذا القاتل هو شيطان أو " ذاك الظل " كما تقولون "

فأخبرته:

" نعم ، أعلم أنه غير منطقي و لكنه فقط ما حدث "

فرد :

" أصدقك شخصياً فهناك أكثر من دليل ، علي الأقل بالنسبة لي و لكن الأمر سيبدو كأضحوكة أمام الحكومة ، بل و معرفة تلك التفاصيل لم تثمر عن أي شيء حتي الآن "

فهمهت و قلت :

" معك حق ، لكن هل ستظل معنا الي ما هو قادم ؟ "

فقال :

" سأحاول "

و أكمل

"تورطت في آخر مرة و تعرضت للمحاسبة و إستطعت حظا أن أفلت من ذلك الأمر"

أبديت له تفهمي لموقفه و انهيت مقابلتي معه ثم أنطلقت الي منزلي فنسيت هاتفي علي فراشي فأي مكالمة في الوقت حالي ستكن ذات أهمية بالغة و بعدها توجهت الي منزل فارس فوجدته علي غير عادته شاردا و قد بدت علي معالمه نوع من البرود بالإضافة إلي عيونه و وجهه الشاحب الجاف فسألته ما به فأجاب أنه بخير و قال لي :

" اريدك ان تتركني الآن الي اخر الليل "

فقلت له :

" ما ذلك الطلب الغريب ؟ "

فنظر إلي بنصف عين و قال :

" تفهمني يا مراد .. "

و قد ظهرت في عيناه تلك ألم رهيب ، لم أعلم ماذا هناك بالتحديد و لكن سارعت في الضغط عليه بالأسئلة حتي أنفعل في وجهي و قال :

" أغرب عن وجهي ، قلت لك أتركني بمفردي! "

فوجعني أسلوبه الذي لم يتكرر من قبل و هززت رأسي في صمت و تركته و رحلت و قضيت اليوم كله في نكد و نكب و تفكير و أخبار القتلي تزداد و تمتد الي المحافظات البعيدة كأن الأمر بدأ يزحف و سيصل قريباً الي القارات فالعالم كله، و انا في يأس ، يبدو أن فارس استسلم أو ما شابه ، فقط لا أعلم .. و انا بدونه لا أستطيع أن أفعل اي شيء ، هو الطرف الأذكي و اعتدنا أن نكمل بعضنا البعض و هو سر وصولنا الي تلك النقطة من الأحداث، لا

اعلم ماذا تخبئ لنا الأيام القادمة من مفاجآت و لا أعلم ما يجب أن أفعله في اللحظة الحالية..

و فجأة أسيتقظت من النوم و أخذت نفس عميق ، هل كنت نائم ؟ ، نظرت إلي ساعة يدي فوجدتها الحادية عشر ، لقد نمت بعد أن عدت لأخذ هاتفي ؟ لا أتذكر أي شيء في بضع الساعات السابقة ، لم أقابل فارس إذا ؟ يا وجع رأسي ، لم أنم جيداً الفترة السابقة ، شيء متوقع بالمرة ، نهضت و نظرت إلي معطفي المعلق وراء الباب ، نعم كما هو ، فقط كان حلم ، ارتاح قلبي قليلاً من ذلك العبء فحاولت الإتصال بفارس فلم يرد ، فقلت في نفسي أنه لا داعي للقلق ، علي الأغلب نائم فحتي أنا نمت دون أن أشعر ..

أخذت أتجول بين قنوات الأخبار علي التلفاز فلم أجد أي جديد يذكر فأغلقته و نهضت الي البلكونة لأشتم بعض من النسيم ذلك قبل أن أسمع باب الشقة ينقر بقوة فقلت لنفسي من سيأتي في مثل هذا الوقت ؟ فتحت الباب فوجدت الصبي حمدان و هو عامل في ورشة للأحذية في شارع فارس ، كان وجه متوردا بشكل يثير القلق و عروقه تسيل علي وجهه المرتعد و قال في تلعثم :

" الأستاذ فارس .. "

و صمت للحظة

" وجد قتيلاً أمام منزله "

فنظرت للفتي و قلت له :

" فارس ؟ "

و أكملت :

" اهو وقت مزاح؟!! "

فبدأ الفتي بالبكاء و يقول :

" أقسم .. اقسم .. "

و أغلقت في وجهه و الرعب و شعوري بعدم التصديق قد أختلط بوجداني ، فوقفت للحظة أمام باب شقتي و الصدمة تعتري قلبي فتراجعت ببطء و فتحت باب الشقة و أخذت انزل أدراج السلم في ترنح و سرت نصف الطريق و انا صامت حتي أنطلقت بالبكاء و هرولت أجري حتي وصلت شارع منزله و نفس ذلك المظهر منذ ٦ سنوات .. ذاك التجمع من البشر .. تلك الأصوات .. ذلك الكابوس كأن الزمن تكرر و عاد نفسه ، سريعاً قطعت المسافة اللعينة و إقتربت فعبرت وسط ذلك التكدس و جثوت علي ركبتي ، نعم لقد مات بالفعل و دموعي أخذت تهطل كسماء لم تمطر منذ مئة عام و لكن الغريب هي ابتسامته تلك ، أخذت اخبط في صدره و اقول له :

" أستيقظ ! أستيقظ ! لا تمت ارجوك ! "

فاقترب مني اثنان من الموجودين و ابعدوني عنه و حاولوا التخفيف بكلمات لا أتذكر منها أي شيء فلم يشغل بالي إلا جثمان فارس و سريعاً أتت سيرين و ورائها قبيل و نذير و عمته و كل من نعرفهم فاقترب مني نذير و بصوته المتقاعس أردف :

" لا مهرب إذا من ذلك المصير ، عليك بالصبر يا مراد "

و ربت علي كتفي من ثم جثو علي ركبته و تفحص جثمان فارس من ثم أمر بعض الضباط بتغطيه جثمانه و حمله و سيرين و عمته في بكاء و نحيب حاد ، و الاستاذ قبيل لم يتفوه بحرف و لكن وجهه

كان كثير الوصف لما فيه ، أكثر الأيام كئابة ، اللحظة التي فقدت فيها الأمل و معها فقدت أكثر من احب و صديق عمري و معها علمت أن موتي بات قريب و ربما كثيرين من حولي ومنهم سيرين ، بدون فارس لا املك ذرة طاقة و الحزن كفيل بهدم ذاتي لأسابيع بل لشهور طوال ، و اثناء بكائي تقدم إلي نذير و مد يده برسالة في ظرف أبيض مكتوب عليه " أمانة الي مراد " ، ففتحها ببطء و قرأت تلك العبارة التي غيرت منظوري عن الكثير :

" من أجلك يا مراد ، من أجلك يا سيرين ، من أجلي .. "

الفصل الخامس

«انا هو انت!»

فارس

ليلة أمس ..

وصلت مراد و عدت الي منزلي و تملؤني حماسة ، تارة وراء تارة و انا اقترب ، خطوة في ذيل الأخري و الحقيقة في نهاية ذلك الطريق الطويل المليء بالمفاجات ، و شرعت الليل بطوله علي فراشي افكر حتي تمكن النوم مني الي منتصف اليوم التالي.

كانت الساعة الخامسة ، نعم عندما استيقظت ، نمت قرابة ال١٣ ساعة ، بديهي و طبيعي جدا ، بل توقعت أنني سأنام أكثر بعد يومين من عدم النوم تقريبًا ، نهضت و أعدت فطورا سريعاً ثم أنطلقت علي مكتبي محاولا إيجاد اي جديد بعد أن حاولت الاتصال علي مراد فوجدته لا يرد و كان ذلك في تمام الساعة السادسة ، فعلمت أنه علي الأغلب غط في نوم عميق و لم يقلقني الأمر كثيراً لأن تلك الهواجس لم تخطو بزيارتها ، خرجت في تمام الساعة السابعة و قضيت بقية اليوم في قياس المسافة بيني و بين الضحايا في وقت تنفيذ عملية القتل فوجدت أنها أقل مقارنة بأول أمس ، فقلت لنفسي لماذا أصبحت أقل ؟ .. ظللت قرابة النصف ساعة حتي أتاني مصباح الفكر من قلب عتمة تلك القضية البغيضة! ، أخرجت أوراقي و دونت الأيام بوقت الجرائم و معهما الحيز المكاني ، أكتشفت أنه ازداد قوة في الفترات التي ابتعدت فيها عن مراد و العكس صحيح ، نعم .. حتي أنه أختفي عندما أنقذت مراد و لكن ما فائدة معرفة ذلك ؟

أنهيت تلك الجولة في تمام الساعة الحادية عشر و دلفت شقتي و خلعت معطفي ملقيا به علي الأريكة و أرتميت بجانبه مسندا رأسي الي خلف و شردت في السقف حول ما حدث اليوم و مازلت أفكر ، لماذا أنا ؟ كيف و علي أي أساس لذلك الشيء علاقة بي ؟ ثم انتقلت بين غرف عقلي مبعثرة الأثاث الي سيرين ، هل فعلا تحبني كما يظن مراد ؟ أتذكر صوتها .. كلامها .. ملامحها .. فقط كأنها نصب عيناي و اثناء شرودي المصاحب بابتسامة تصل بين وجنتاي سمعت صوت عبث و تخبط في غرفتي ، تجاهلت الصوت لعله مجرد هاجس أو ظن خاطئ و لكن عاد الصوت سريعاً بل بقوة أكبر فنهضت و سرت تجاه باب الغرفة و فتحته فما فيه إلا ظلام دامس فتحسست قبس الضوء حتي فتحته و الغرفة تبدو بشكل طبيعي جدا فأغلقت الضوء و بمجرد أن أمسكت مقبض الباب لإغلاقه سمعت صوت يطابق صوتي تماماً يقول :

" ما رأيك في ؟ أليس هذا ما أردته ؟ "

و كان الصوت ذا نبرة خبيثة فاصطكت أسناني و تجمدت ذراعي الممسكة بمقبض الباب و بدأت معزوفات الكمان الكئيبة تلك تملء المكان و معها صوت خطوات تنبع من الظلام و تقترب و معها تراجعت بخطوات مماثلة الي الخلف حتي وقفت في نهاية الصالون و تقدم ذلك الشيء .. ذلك الظل فظهر علي أثر الضوء و وقف أمامي بلا كلام فتجمد كالتمثال حتي أنطلقت في ارتجاف اقول :

" من انت !!؟ ماذا تريد !! "

فمد ذراعه الي الأمام و طرقع بأصبعيه السبابة و الإبهام فإنحال العالم من حولنا و تلاشي كزجاج متناثر و وقفنا في فراغ من الظلام القاتم فطرقع مرة أخري و بدأ ذلك الظلام ينحسر و يتحول إلي ذلك اليوم ، في شارعنا و وجدت نفسي أقف خلف جثمان أمي

و هولاء الجيران يحيطون بي و دقات قلبي تصارع كااثيران و العرق يغطي وجهي المرتعب المصفر فلمحت النسخة الصغيرة مني تركض باتجاهي و فجأة نظر إلي أمي و أنهار ساقطا و آخر ما رأته عيونه قبل أن تطبق جفونه كان أنا ..

و مرة أخري وجدت نفسي في حلقة مظلمة و تحيط بي سياج من البشر مبهمة الملامح و تشير بأصابعها تجاهي و رويداً ظهرت ملامح هولاء الأشخاص ، أمي ، ضحية المرج .. و بعض من الآخرين الذين لم أراهم من قبل و انتقلت مرة أخري إلي مسرح ضحية المرج و وجدت نفسي أقف بين مجموعة من الغرباء و لا أفهم اي شيء حتي لمحت نفسي تنظر إلي و أنتقلت مرة أخري و مع كل إنتقال يخترق أذني صوت من التشويش المختلط بصرخات لأصوات مألوفة و لكن مازلت لا أستطيع التعرف علي أصحابها و وجدت نفسي أهمس في أذان أشخاص لا اعرفهم .. لا للحظة ذلك الرجل ؟ المقتول بالحبر !! انا لا أفهم اي شيء !! و أمسكت برأسي و أخذت أصرخ و أثناء صراخي وجدت نفسي في شقتي تنظر إلي في رعب و في مكان آخر كنت احاول قتل مراد و أخذت في جنون :

" توقف !! انت تريد التلاعب بي !! توقف .. توقف!!!! "

و فجأة عدت مرة أخري إلي الصالون و ذلك الظل يقف أمامي حتي بدأت تلك الطبقة المظلمة علي جثمانه تتساقط ببطء فتظهر هيئته الحقيقية ،مع تساقط تلك الطبقات من الأسفل فالأعلي فيظهر

ذلك البنطال الأزرق الذي اردتيه في اللحظة التي اتحدث فيها ، هنيهة و ظهر جثمانه كله ما عدا وجهه ، فمد يده و أمسك تلك الطبقة المظلمة و سحبها بتمهل كأنها قناع فتمزقت عن وجهه .. يا الله .. أليس للصاعقة طرق أقل جلفا الي قلبي

وجدت ذاك الوجه هو وجهي و حينها أنفرجت جفوني و شفاهي من الهلع و هيمن الصمت علي فمي و بدأ ذلك الظل أو شبيهي .. بالكلام و قال :

" نحن نحقق حلمنا ، لماذا تقف في الصف الخاطئ ؟ "

و أكمل :

" فقط توقف ، أنت تهدم كل شيء "

فنظرت إليه بحواجب منعقدة و قلت :

" نحن ؟ من انت ؟؟! "

فقال لي :

" انا هو انت "

قلت له :

" كيف ؟ لا ، لا .. انا فقدت عقلي و كل ذلك مجرد كابوس "

و أمسكت برأسي و جثوت علي ركبتي بقوة فظهر صوت ارتطامي بالأرض

فتحرك تجاهي و مع إقترابه يزداد صوت ذلك العزف فتوقف قبل أن يصل لي بخطوة تقريباً و قال :

" كابوس ؟ "

ثم جلس القرفصاء أمامي و قال :

" الكابوس الحقيقي هو مقتلهم "

فنظرت إليه و قلت :

" من . من تقصد ؟ "

فقال :

" انت تعلم "

و فجأة أمسك برقبتي و رفعني في الهواء و همس بصوت غريب و كلمات غير مفهومة و قال لي :

" الآن ستري كل شيء "

و فجأة انحال المكان الي فصلي القديم عندما كنت في المرحلة الإعدادية و قال :

" هل تتذكر ذلك اليوم ، اليوم الذي تحررت فيه و أصبحت مستقل بذاتي "

و أكمل :

" طيلة عمرك تتمني السلام ، العدل و المحبة ، تتمني أن يتوقف البشر عن نهش لحوم بعض مثل الكلاب ، سأكون صريح، إنه أمر نبيل للغاية "

فقلت له :

" نعم و ما علاقة ذلك !؟ "

فرد و قال :

" ربما لاحظت ذلك ، ألم يكن بداخلك دائما شعور وحشي أن تزيل العديد من البشر ؟ "

بالفعل .. فكرت في ذلك ، فنظرت إليه و قلت :

" نعم و لكن لم أرد فعلا أن أؤذي أحد ! "

فقال :

" ربما هذا ما تظنه فقط و لكن بداخلنا جميعا جانب واقعي ، جانب صحيح ، جانب و نسخة افضل مما يظهر عليه البشر ، و ذلك الجانب هو ما يمثلني "

و أكمل :

" انت أردت دائما أن تقتل ، تمحي ، و تهلك كل تلك الأشكال المذنبة "

فقلت له :

" لا ! لم افعل !! "

فقال لي :

" بل فعلت و مع إرادتك تلك ، الإرادة الجبارة التي تفوقت علي أي انسان سبقك و التي منحتني القدرة أن أكسر حاجز الخيال .. و اصبح جزء من الواقع .. "

و أكمل :

" بدأت ضعيفا ، أضعف منك ، و لكن مع الوقت أمتلك قوة أكبر فأكبر و مع كل ضحية كنت أزداد نفوذاً و انت لاحظت ذلك بقدرتي عن الابتعاد عنك فهناك خيط بيننا يمنعني عن اختراق حدودي و لكن قريباً سأصبح بلا عوائق "

و أكمل :

" ربما الشئ الوحيد الذي لما تتوقعه هو بشكل دقيق هو جزئية التنويم ، في الواقع لا ، كنت أقتلهم بنفسي و لكنني كما تري ، لست كيانا مادياً فلا اثار لمعظم أفعالي ، و ملامحهم الباردة لم تكن إلا امتصاص لخوفهم فهو غذائي الوحيد و سأفعل المزيد. "

فقلت له :

" لا لن تفعل ، لأنك مجرد لا شيء!! انا أكيد أحلم كل شيء!! ، لا جرائم .. لا ضحايا .. لا شيء.. انا فقط مجنون ! نعم مجنون .. "

فقال :

" هل تتذكر ذلك اليوم عندما خبط مراد علي صدرنا ؟ "

و أكمل :

" أعتقد الكل أننا متنا و لكن الأمر و ما فيه أنني تلاعبت برؤيتهم و حدسهم و ذلك لم ينطبق علي مراد الا ثواني معدودة ، ربما لأنه كانت تربطه بك صلة قوية بشكل كافي و حين ذاك لم أكن سوي محدود النفوذ ، و اليوم أصبحت قوي بما فيه الكفاية ، وهمت مراد و تلاعبت بعقله و أقنعته أن ينام من الرابعة رغم أنه ليس بحاجة إلي النوم ، و أنت أيضاً أخرت ميعاد أسيتقاظك الي الخامسة ، في الواقع حاولت فصلكم عن بعض لأن ذلك يقلل من مقدرتي ،و قدر إمكانيتي زودت من حاجتكم للنوم فلم يكن ذلك صعبا و هدف ذلك كله هو إتمام اخر خطوة و هي أن أتحرر .. اليوم "

فقلت له :

" تتلاعب بنا ؟؟ و لماذا وهمتهم اني قد متت "

و صمتت لهنيهة .. و أردفت لنفسي :

" إتمام اخر خطوة ؟ "

فرد:

" أردت قتلك منذ البداية لأكن صريحاً لكن اكتشفت سريعاً أنني سأموت معك إذا قتلتك قبل أن انفصل عنك كليا "

فاتسعت جفوني من الخوف و أردفت سريعاً :

" تريد قتلي ؟؟ هل انت مجنون !! و ماذا فعلت لك! "

فقال لي :

" علمت أنك ستكون ضدي طيلة الطريق لأنني الجزء الصواب منك وانت الحالم الموهوم و لكن علاقتي بك جعلتك قادر علي تتبعي الي جانب ذكائنا المميز "

فسألته عن سبب صوت العزف ذلك الذي كاد يخترق اذناي أثناء إصغائي له فأردف قائلا :

" نعم هذا ؟ طيلة عمرك كنت تشمئز من موسيقي الافلام الشبيهة لتلك ، فما ذلك إلا انعكاس لمخيلتك "

و أكمل :

" لم أستطع اخفاء كل شيء عنك ، في النهاية نحن مجرد شخص واحد ، وجدتك تتبعني و تقترب أكثر فأكثر حتي لاحظت انك تمتلك مثل رؤية لما يحدث ، و الآن سأجعلك تري واحدة بنفسك "

فصمت للحظة و طرقع بأصبعيه مرة أخري، أخذت في الصراخ الهستيري و نهج أنفاسي أزداد و أخذت أخبط و ارتطم بجسدي و يدي علي الأرض و فجأة دخلت مكان غريب .. و سريعاً لاحظت انها غرفة نوم و علي ذلك الفراش سيرين و هي تكتب في مذكراتها و ساعة الحائط فوقها تشير الي الثانية عشر و فجأة سمعت صوت أختناقها و الإضاءة انهارت فلم أري اي شيء و لكن اذناي سمعت صوت تألمها مما شق قلبي الي نصفين و أخذت في البكاء المصحوب بالصياح حتي عدت مرة أخري إلي شقتي و وجدت نفسي ممسكاً بمقبض الباب أحاول إغلاقه و قلت " لم أتحرك من مكاني ؟؟ كل ذلك وهم " و لكن قطع شكي باليقين وجود عملاتي المعدنية علي الأرض ، لا .. علمت أنه هنا فنظرت الي ساعة يدي في هلع ، أنها الحادية عشر و ٥٢ دقيقة ، لا .. لا وقت .. لا وقت ! فاتصلت بها سريعاً و هي لا ترد و أخذت اقول

" ارجوكي ردي !! ارجوكي .. يا سيرين لا وقت .. "

مرت الدقائق سريعاً و فقط ٥ دقائق تفصل مقتلها فتركت الهاتف فسقط علي الأرض و أخذت أتذكر كلمات ذلك الشيء .. كلماتي .. انا هو انت .. نحن .. فاتسعت حدقة عيني و قلت :

" نعم .. "

و صعدت الي السطوح مباشرة و أغمضت عيني و قلت لنفسي :

".. أنها الثانية العشر، لا وقت و حتي أن أنقذتها تلك المرة فلا ضمان المرات القادمة ، الأمر فقط ميؤوس منه .. لا إختيار اخر .."

الفصل الأخير

«يا ليتني»

سيرين

كنت في غرفتي أعد بعض من الأبحاث التي تخص جامعتي في تمام الساعة الثامنة قبل أن يطرق الباب فيأتينا زائر مفاجئ فإقتربت من باب غرفتي و لامسته بأذني محاولة الإصغاء فسمعت اخي الأصغر يقول " فارس ؟ تفضل " ، فأنفرجت أساريري و أنطلقت أمام مرآتي اتفحص وجهي و اهيئ حجابي وكلي سعادة و همة و أردت أن أظهر بشكل جيد بما يكفي ..

فنادتني أمي و خرجت فرأيته جالسا علي الأريكة و لكن كسا وجهه القلق و التقاعس فأختفت بهجتي و تبدلت بهم فبادرت سريعاً و سألته :

" فارس ؟ ما بك ؟ يبدو عليك الهلع ، هل انت بخير ؟ "

فأجاب أنه فقط مرهق بشدة علي أثر تلك السلسلة المتتابعة من النكبات الفترة السابقة و طلب مني حديث قصير علي إنفراد إذا أمكن فوافقت و أخذنا الإذن من أمي و انطلقنا بأدراجنا الي أسفل حيث أمام مدخل منزلي و بدأ يحدثني و صوته المرتعش يصاحب كلماته قائلا إنه يشعر أنه لن يدوم .. بل يشعر أنه سيموت ، فشعرت بغضة في قلبي و أنطلقت بنبرة مرتفعة أعارض تفكيره و أحاول زيادة طمأنينته فأنا شديدة الدراية بما يمر فيه و لكن لاحظت أنه تقاعس و بدأ يغلق ثغرات الحديث حتي رحل تاركا في علامة مؤلمة حتي صعدت مرة أخري و بقيت طيلة الليل في تفكير حتي أنني تجاوزت موعد نومي دون أشعر فنهضت من فراشي و أخذت

أدور و أجول في غرفتي فتوقفت أقدامي عند مرآتي و نظرت إلي إنعكاسي و قلت لنفسي :

" لماذا فقط لم تخبريه ؟ لماذا ؟

نفخت من الخنقة و عدت الي فراشي مرة أخري و أخذت استذكر كلماته المخيفة تلك فيعبس وجهي و بعدها أتذكر المواقف السعيدة بيننا فإبتسم مثل البلهاء ، الوقت الذي تعرفنا فيه علي بعضنا البعض ، زيارتنا ، كلامنا ، خفة دمه رغم عقليته الكئيبة ، أتذكر كل المواقف بيننا و أظل هكذا تصل البسمة بين وجنتاي المتوردتين و قررت أن أذهب غداً لكي أعترف له و احرر قلبي من ذلك العبء و لكن ماذا لو أنه لا يحبني و شعوري ذلك خاطئ و مجرد توهم ؟

ظللت غاطسة في ذلك الإناء من الفكر و التدبر حتي أتي زائر النوم و أخذني في ضيافة طويلة إلي أن أستيقظت صباحاً علي صوت منبهي فأغلقته و نهضت غسلت وجهي ثم أكلت من ثم خرجت للسوق من أجل جلب بعض الطلبات و مازلت لا أستطيع إخراج فارس من رأسي الي الآن و في طريق عودتي قابلت مراد فقابلتي بإبتسامة عريضة تلتمع فيها عيناه فسألته عن صحته و أخباره و بعدها سألته عن فارس فقال لي :

" هو بخير ، خاصة عندما يكلمك "

فضحكت ضحكة خجل و تلاعبت بأصابعي و قلت له :

" عندما يكلمني ؟ "

أعتقد أنه لاحظ توتري و خجلي فبادر و قال :

" ماذا عنك يا آنسة سيرين ؟ أتبادليه نفس الشعور؟ "

فإحمر وجهي أكثر و تلعثمت قائلة

" اي .. أي شعور ؟ "

فقال لي :

" ألا تعلمين ؟ "

فقلت له :

" لا ، لا صدقا "

فقال لي :

" انه يحبك يا سيرين .. "

فقلت له :

" حقا ؟ لم أعلم من قبل .. "

و صمتت للحظة فعلم مراد ما في قلبي فأردف سعيداً :

" هو في أشد الحاجة اليكي و خاف أن يعترف ، يمكنك المبادرة "

و استأذن مني و أخبرني أنه في طريقه الي فارس ثم رحل و أغمرتني فرحة عارمة و أنطلقت الي منزلي أغني و اهز رأسي طيلة الطريق حتي وصلت و رآني اخي عماد فقال لي :

" و ما سبب تلك الفرحة يا عجوزة ؟ "

فضحكت و قلت له :

" لا دخل لك يا طفل "

و دخلت غرفتي و أغلقت الباب علي نفسي و قررت أن أصارحه لكن فقط بعد أن أنهي بعض من المهام علي صفحتي و المنزل ، و قضيت اليوم بأكمله في همة و نشاط و بعد أن انهيت مهامي أتصلت بفارس و لكنه لم يرد بعد محاولتين فاتصلت بمراد فرد علي ، فسألته عن فارس فقال لي :

" لم يرد علي إتصالاتي و لكنه أمر طبيعي جدا ، الفترة السابقة كانت ثقيلة علي أكتافه و هو في الأغلب نائم ، فأنا مثلي كمثله و لن استيقظ الا منذ قليل بالصدفة "

أنهيت المكالمة معه و قد تبدل سروري ذاك بقلق و اختناق علي الرغم من محاولة مراد للتخفيف عن توتري ، قضيت وقتي علي فراشي اتلاعب بشعري و الهدوء يكتنف جلستي تلك حتي أتت الساعة الحادية عشر و نصف فأحضرت مذكرتي و أخذت أكتب فيها أي شيء ، فقط أحاول تشتيت تفكيري و تضييع وقتي حتي يتغلب مني النوم و اثناء تحرك قلمي علي أوراقي ظهر أمامي كيان أسود اللون و أمسك بي من رقبتي بقوة تكفي أن تمنعني أن أصدر أي صوت الا صوت اختناقي الضعيف و اخذت أرفس بأقدامي و يدي و برقت عيناي و أحمر وجهي من الهلع ذلك قبل أن ينفجر ذلك الكيان و يتناثر الي قطع سوداء صغيرة تساقطت ببطء مثل الريش و اختفت كأنها لم توجد فنهضت أبكي و أركض الي أمي و وجدتها هي و اخي في ذهول من بكائي فحكيت لها ما حدث فضمتني الي حضنها و قالت :

" لا ، مجرد توهم ، ربما حلم أو ما شابه "

و أكملت :

" لا تقلقي يا حبيبتي ، أنا هنا و كل شيء سيكون بخير ، فقط مجرد حلم يقظة و يحدث لنا جميعاً "

بشكل صريح لم أقتنع و لكن ظللت متشبثة بها حتي هدأت قليلاً و نهضت لكي أصلي ركعتين ليطمأن قلبي ، و بعدها مكثت في الصالة فلم يدفعني قلبي أن أظل وحدي خاصة بعد ما حدث في غرفتي و في تلك الأثناء أتني إتصال من أحد معارفي من جيران فارس و لفظ تلك الكلمات الاكثر ألما في حياتي و أخذت أبكي و أصرخ فانتفضت أمي في رعب تسألني ماذا حدث فقلت لها :

" فارس مات .. فارس مات .. "

و أنطلقت بحجابي المبعثر و مظهري المتدهور و صوت بكائي يتخلل ذاك الهدوء في الشوارع حتي وصلت إلي شارعه و تجمعات السكان حطمت قلبي فكان عندي املأ و لو طفيف فتقدمت سريعاً و رأيته راقدا علي ظهره .. مظهر دمائه .. أخذت في النحيب فلم تتحمل عيناي أو قلبي مظهر الشخص الوحيد الذي أحببته و في الناحية الأخري وجدت مراد علي فنظر لي بعينين حمراوتين و لأول مرة أري ذلك العبس يرتسم علي تلك الملامح ..

يوم منكوب ، يوم حطم جميع احلامي ، لم امتلك الفرصة أن اصارحه حتي ، أخذت طيلة ذلك اليوم في البكاء حتي فرغت دموعي ، حتي توردت وجنتاي و أنفي بلون الدم ، بكيت حتي ذهب صوتي و تبدل بحناجر مجروحة تبوح ما في من توجع ، بكيت حتي خفق قلبي من التعب و مثلي مراد .. عمة فارس .. و كل من أحبه ..

بعد مرور ٣ ايام..

توقفت موجة الضحايا .. عادت الأمور لمجراها .. ثالث يوم و ذلك الطوفان قد أنهي اخر موجاته القاسية بوفاة فارس ، ربما لم يحقق فارس أحلامه أو ما تمناه و لكنه وجد ما هو أعلي مرتبة و قيمة و هو الإيمان بالذات و إيجاد الحقيقة التي بحث عنها لسنين و وجد في النهاية أنها كانت في أعماقه ، علم أنه مات لقيمة و هي إنقاذ حياة من يحب و عرف أنه كان إنسان مميز و أن حياته لم تذهب في مهب الرياح و رحل و هو يتمني أن يجتمع بهم لاحقاً فكلنا اموات لا محالة و فقط دقات الساعة تفصلنا عن الميعاد

ذلك الشيء لم يكن سوي إرادة فارس فتشكلت الي هيئة واقعية و يعود الأمر إلي قوة غير مفهومة و مجهولة بجسد فارس نفسه ، و يظل ذلك اللغز سائرا حتي اللحظة الحالية.

لاحظ مراد استقرار الأوضاع و علم أن فارس بطريقة أو بأخري قد أنهي كل شيء بإنتحاره و علم أنه لم يمت أمام شيطنة ذلك الناحية و أخبر سيرين أن فارس فعل ذلك من أجلهم .. بل بشكل خاص من أجلها فظلت سيرين في الناحية الأخري يهيمن عليها الندم أنهما لم تصارح فارس بما في قلبها و مثلها كمثل مراد تكتنفها سياج الأسي و يتخلل قلبها أشواك النكب و النكد..

حاول إنعكاس فارس تدمير فارس ببطء لأن ذلك كان يزيد من فرصة تحرره الي كيان مستقل و لكنه لم يضع في الحسبان أن ذاته الأصلية كانت لتتخذ خطوة مثل تلك و بذلك أنتهي كل شيء ، و لم يستطع ذلك الانعكاس منعه فإرادة فارس لإنهاء كل شيء تفوقت علي إرادته في النهاية.

ربما في بعض الأحيان نحتاج الي التخلي عن أحلامنا في سبيل قيمة أكبر ، أحيانا نجد أن ليست كل تصوراتنا الشخصية عن الحقيقة صحيحة و أن ما نريده ليس سوي رغبات وهمية لا نريدها في الأعماق ، حياة فارس لم تكن كما أراد و لكنه مات كم تمني دائما ، مات لقيمة ، مات و هو مدرك الكثير عن الواقع الذي نعيش فيه.

تمت بحمد الله.

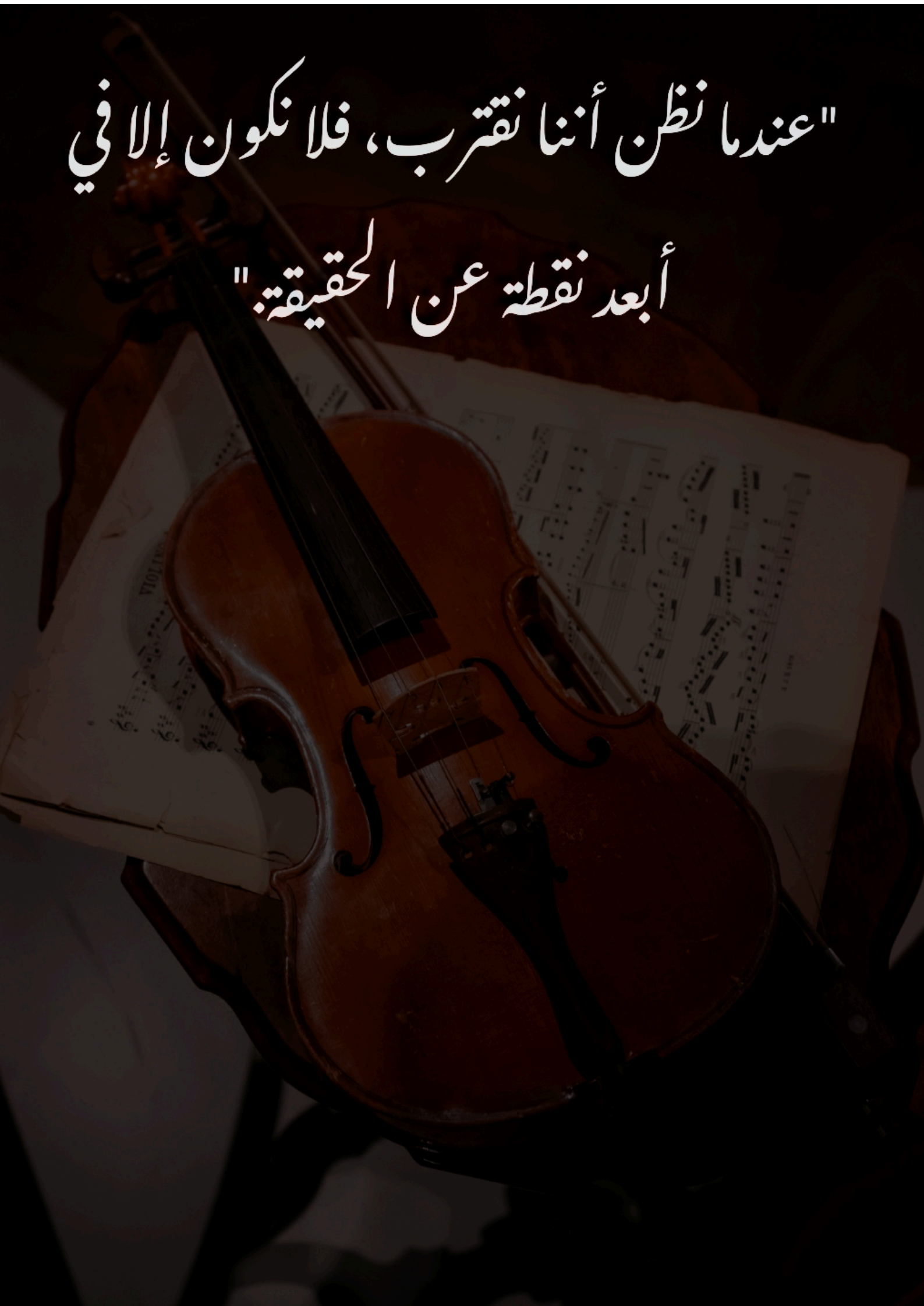
"عندما نظن أننا نقترب، فلا نكون إلا في
أبعد نقطة عن الحقيقة."